سورة الحج: الآية ١٨

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[1].

رجح شيخ الإسلام أن المراد بقوله تعالى: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ ﴾ الكفار وهم معطوفون على ما سبق أي: إنهم يسجدون وسجودهم سجود ظلهم (أو خضوعهم)، أو أنهم لا يسجدون له السجود الشرعي ولذلك حق عليهم العذاب.

قال – رحمه الله –: "قال أبو الفرج: وفي قوله: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ ﴾ قولان: أحدهما: أنهم الكفار، وهم يسجدون، وسجودهم سجود ظلهم؛ قاله مقاتل.

والثاني: أنهم لا يسجدون، والمعنى وكثير من الناس أبى السجود ويحق عليه العذاب لتركه السجود؛ هذا قول الفراء[2].

قلت: ذا قول الأكثرين وقد ذكر البغوي في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ

---

(١) سورة الحج: الآية ١٨.

(٢) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد، أبو زكريا، المعروف بالفراء، إمام أهل الكوفة في النحو، ولد بالكوفة سنة ١٤٤هـ، من مؤلفاته: معاني القرآن، والمقصور والممدود، توفي وهو ذاهب إلى مكة سنة ٢٠٧هـ. انظر: تاريخ بغداد ١٤/١٤٩ ترجمة (٧٤٦٧)، وتهذيب التهذيب ١١/٢١٢.

﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية قال: قال مجاهد: سجودها تحول ظلالها، وقال أبو العالية[١]: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجداً حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه، قال: وقيل سجودها بمعنى الطاعة فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله خاشع له مسبح له، كما أخبر الله عز وجل عن السماوات والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٢]، وقال في وصف الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[٣]، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٤]، قال: وهذا مذهب حسن موافق لقول أهل السنة.

قلت: قد تقدم قول الطبري وغيره بهذا القول فإذا كان السجود في هذه الآية ليس عاماً، وهو هناك عام كان السجود المطلق هو سجود الطوع، فهذه المذكورات تسجد تطوعاً هي وكثير من الناس، والكثير الذي حق عليه العذاب إنما يسجد كرهاً، وحينئذ فالكثير الذي حق عليه العذاب لم يقل فيه إنه يسجد ولا نفى عنه كل سجود، بل تخصيص من سواه بالذكر يدل على أنه ليس مثله، وحينئذ فإذا لم يسجد طائعاً حصل فائدة التخصيص، وهو مع ذلك يسجد كارهاً، فكلا القولين صحيح، وكذلك قال طائفة من المفسرين واللفظ للبغوي

---

(١) هو رُفَيْع بن مِهْرَان الرِّياحي البصري، المقرئ الفقيه المفسر، وله تفسير، توفي سنة ٩٣هـ. انظر: تقريب التهذيب ص٢١٠، وطبقات المفسرين للداوودي ١٧٢/١ ترجمة رقم (١٧٠).

(٢) سورة فصلت: الآية ١١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٧٤.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

قالوا: وكثير حق عليه العذاب بكفرهم وتركهم السجود وهم مع كفرهم تسجد ظلالهم لله - تعالى -"[١].

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ على قولين:

القول الأول: أنهم لا يسجدون، والمعنى: وكثير من الناس أبى السجود، فحقَّ عليه العذاب لتركه السجود؛ وهذا قول الفراء[٢]، والواو على هذا استئنافية[٣]؛ وهذا قول الجمهور.

واختاره السمعاني[٤] [٥]، والواحدي[٦]، وابن جُزي[٧]، وابن كثير[٨]، وابن القيم، والقاسمي[٩]، وابن عاشور[١٠].

---

(١) جامع الرسائل ١/٤٠، وقد حكى الخلاف عن ابن الجوزي في زاد المسير ٥/٢٨٥.
(٢) معاني القرآن ٢/٢١٩.
(٣) تفسير ابن عطية ١١/١٨٦.
(٤) هو أبو المظفَّر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي السمعاني الشافعي التميمي، المفسر المحدث الفقيه، من مؤلفاته: تفسير السمعاني، والانتصار لأصحاب الحديث، توفي سنة ٤٨٩هـ بمرو. انظر: طبقات الشافعية للأسنوي ١/٣٢١ ترجمة رقم (٦٠٣)، وطبقات الداوودي ٢/٣٣٩ ترجمة (٦٥١).
(٥) تفسيره ٣/٤٢٨.
(٦) الوسيط ٣/٢٦٢.
(٧) تفسيره ٢/٥٣.
(٨) تفسيره ٣/٢٢١.
(٩) تفسيره ١٢/١٥.
(١٠) تفسيره ١٧/٢٢٧.

قال ابن القيم: "فالذي حق عليه العذاب: هو الذي لا يسجد له سبحانه وهو الذي أهانه بترك السجود، وأخبر أنه لا مكرم له، وقد هان على ربه؛ حيث لم يسجد له"(١).

وشيخ الإسلام – كما تقدم – يرى أن كلا القولين صحيح، والمعنيان يمكن أن يحملان على صنف واحد، لكنْ هذا مرادُ الآية.

القول الثاني: أنهم الكفار، وهم يسجدون، وسجودهم سجود ظلهم؛ قاله مقاتل(٢)، ومجاهد(٣)، والواو هنا عاطفة(٤)، واختاره ابن جرير(٥)، والبغوي(٦).

وضعَّف هذا القول ابن جُزي، وقال: "وإن جعلنا السجود بمعنى الانقياد لقضاء الله وتدبيره، فلا يصح تفصيل الناس على ذلك إلى من يسجد ومَن لا يسجد؛ لأن جميعهم يسجد بذلك المعنى، وقيل: إن قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ معطوف على ما قبله ثم عطف عليه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ فالجميع على هذا يسجد، وهذا ضعيف؛ لأن قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يقتضي ظاهرهُ أنه إنما حق عليه العذاب بتركه السجود"(٧).

---

(١) كتاب الصلاة ص١٨٠.
(٢) ذكره عنه ابن الجوزي ٢٨٥/٥.
(٣) أخرجه ابن جرير ١٢٢/٩، وعزاه في الدر ٦٢٦/٤ أيضاً لعبد بن حميد وابن المنذر.
(٤) ابن عطية ١٨٦/١١.
(٥) تفسيره ١٢٢/٩.
(٦) تفسيره ٢٧٩/٣.
(٧) تفسيره ٥٣/٢.

والأظهر لي – والله أعلم – القول الأول وهو قول الجمهور؛ لأنه ظـــاهر الآية، حيث قسَّم الله تعالى الناس إلى صنفين، صنفٍ من الناس تابع لما سبق في السجود، وصنف آخر أبى السجود ولذلك حق عليه العذاب، وتفسيرُ السجود بمعنى الانقياد والخضوع بعيد؛ لأن الجميع خاضع منقاد لله تعالى.

سورة الحج: الآيتان ٣٠ - ٣١

قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بالزور في هذه الآية: كلُّ قول باطل.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "وفي الصحيحين[٢] عن النبي ﷺ قال: "عدلت شهادة الزور الإشراك بالله"قالها مرتين أو ثلاثاً، ثم تلا هذه الآية، وإنما في الآية: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾، وهذا يعمُّ كلّ قول زور بأي لفظ كان، وعلى أي صفة وجد، فلا يقوله العبد ولا يحضره ولا يسمعه من قول غيره، و(الزُّور) هو الباطل الذي قد ازوَرَّ عن الحق والاستقامة، أي تحوَّل، وقد سماه النبي ﷺ شهادة الزور، وقال في المظاهرين من نسائهم: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾[٣]"[٤].

---

(١) سورة الحج: الآيتان ٣٠ – ٣١.

(٢) يأتي تخريجه، وليس في الصحيحين، وإنما الذي في الصحيحين حديث أبي بكرة وأنس – رضي الله عنهما –: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر..."وليس فيه ذكر الآية. انظر: فتح الباري ٣٢٢/٥، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور.

(٣) سورة المجادلة: الآية ٢.

(٤) مجموع الفتاوى ١٦٩/١٤، وانظر: نفس المرجع ٨١/١، ٨٢/٢٧، واقتضاء الصراط المستقيم ٧٥٨/٢ فقد بيَّن في هذه المواضع أن المراد بالزور في هذه الآية الكذب.

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بقول الزور في الآية على أربعة أقوال:

القول الأول: أنه شهادة الزور، قال ابن مسعود: "عُدلت شهادة الزور بالإشراك بالله ثلاث مرات، ثم قرأ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾"(١)، ورُوي مرفوعاً إلى النبي ﷺ(٢).

القول الثاني: أنه الكذب؛ قاله ابن عباس – رضي الله عنهما –(٣)، ومجاهد(٤)، واختاره السمعاني(٥).

القول الثالث: أنه الشرك؛ قال مقاتل: "يعني الشرك بالكلام، وذلك أنهم

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٤٤/٩، وعزاه في الدر ٦٤٦/٤ لعبد الرزاق و لم أجده.

(٢) أخرجه أحمد ٣٢١/٤، وأبو داود ٣٠٤/٣ ح٣٥٩٩، كتاب الأقضية، باب في شهادة الزور، وهذا لفظه، وابن ماجة ٧٩٤/٢ ح٢٣٧٢، كتاب الأحكام، باب شهادة الزور، والترمذي ٤٧٥/٤ ح٢٣٠٠، كتاب الشهادات، باب ما جاء في شهادة الزور، وابن أبي شيبة في المصنف ٢٥٨/٧، وابن جرير ١٤٤/٩، وعزاه في الدر المنثور ٦٤٦/٤ أيضاً لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، والطبراني، جميعهم من حديث خريم بن فاتك، قال ابن القطان: "لا يصحُّ"، تخريج الكشاف للزيعلي ٣٨٣/٢، وقال الحافظ في التلخيص ٣٤٩/٤: "إسناده مجهول، ورواه أحمد والترمذي والطبري من حديث أيمن بن خريم وهو ضعيف أيضاً".

(٣) أخرجه ابن جرير ١٤٤/٩.

(٤) أخرجه ابن جرير ١٤٤/٩ من طريقين، وعزاه في الدر ٦٤٦/٤ لابن أبي حاتم.

(٥) تفسيره ٤٣٦/٣.

كانوا يطوفون بالبيت فيقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك"[١].

القول الرابع: أن قول الزور يشمل كل قول باطل، وهذا الذي اختاره شيخ الإسلام كما تقدم، وهذا قول الزجاج حيث قال عند هذه الآية: "الزور: الكذب، وقيل إنه ههنا الشرك بالله، وقيل أيضاً شهادة الزور، وهذا كله جائز، والآية تدلُّ – والله أعلم – على أنهم نهوا أن يحرموا ما حرَّم أصحابُ الأوثان نحو قولهم: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، ونحو نحرهم البحيرة والسَّائبة، فأعلمهم الله أن الأنعام محلَّلةٌ إلا ما حرم الله منها، ونهاهم الله عن قول الزور أن يقولوا هذا حلال، وهذا حرام ليفتروا على الله كذباً"[٢]، وهو ظاهر اختيار ابن جرير[٣].

واختاره ابن عطية أيضاً، وقال: "والزور عام في الكذب والكفر، وذلك أن كل ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزور"، وذكر حديث: "عدلت شهادة الزور..."ثم قال: "والزُّور مشتقٌ من الزَّوْر وهو الميل، ومنه في جانب فلان زور، ويظهر أن الإشارة إلى زور أقوالهم في تحريم وتحليل، مما كانوا قد شرعوه في الأنعام"[٤]، واختاره أيضاً ابن حجر[٥]، والشوكاني[٦]،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، انظر: الدر ٦٤٦/٤.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤٢٥/٣.
(٣) تفسيره ١٤٤/٩.
(٤) تفسيره المحرر الوجيز ١٩٨/١١.
(٥) انظر: فتح الباري ٣٢٢/٥.
(٦) فتح القدير ٦٣٩/٣.

والسعدي[١]، والشنقيطي[٢].

وهو الراجح – والله تعالى أعلم – وبه تجتمع الأقوال، وتحمل هذه الأقوال على أنها من باب ذكر المثال، لا التخصيص والحصر؛ فإن الزور هو الكـــذب، وشهادة الزور، وقول الشرك، وتحريم ما أحل الله، كل ذلك من الكذب.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٥٣٩.
(٢) أضواء البيان ٦٨٩/٥.

سورة الحج: الآية ٤٠

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بالمساجد في الآية هي مساجد المسلمين.

قال رحمه اللّه عند هذه الآية: "والمساجد للمسلمين وليس المراد بها كنائس النصارى؛ فإنها البيع"[٢].

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بالمساجد في الآية على قولين:

القول الأول: ذهب عامة المفسرين[٣] إلى أن المراد بالمساجد في الآية هي مساجد المسلمين؛ وبه قال ابن عباس - رضي اللّه عنهما -[٤]، وقتادة، ورفيع[٥]، ومجاهد[٦].

---

(١) سورة الحج: الآية ٤٠.
(٢) الجواب الصحيح ٢/٢١٤.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/٣٩٦، والواحدي ٣/٢٧٣، والماوردي ٤/٣٠، والزمخشري ٣/٣٤، وأبي حيان ٦/٣٤٧، والنسفي ٢/١١٧، والألوسي ١٧/١٦٣.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/٢٤٩٧، وانظر: تفسير ابن الجوزي ٥/٢٩٩.
(٥) تفسير ابن جرير ٩/١٦٦.
(٦) تفسير ابن كثير ٣/٢٣٦.

القول الثاني: أن المراد بالمساجد: الصوامع والبيع والصلوات[١].

قال الرازي معللاً هذا القول: "أما الصوامع فلأن المسلمين قد يتخذون الصوامع، وأما البيع فأطلق هذا الاسم على المساجد على سبيل التشبيه، وأما الصلوات فالمعنى أنه لولا ذلك الدفع لانقطعت الصلوات ولخربت المساجد"[٢].

وهذا القول ضعيف مخالف لما أطبق عليه المفسرون من السلف ومن بعدهم.

والراجح القول الأول لأنه ظاهر الآية، وقول جمهور السلف، وتفسير جمهور السلف مقدم على كل تفسير شاذ[٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٦٦/٩، وابن عطية ٢٠٦/١١، والرازي ٣٦/٢٣، وفي المراد بالصوامع والبيع والصلوات أقوال أرجحها أن المراد بالصوامع معابد رهبان النصارى، والبيع كنائس النصارى، والصلوات كنائس اليهود، وهذا قول جمهور المفسرين. انظر: تفسير ابن جرير ١٦٤/٩، وابن الجوزي ٢٩٩/٥، وابن كثير ٢٣٦/٣.

(٢) تفسير الرازي ٣٦/٢٣.

(٣) قواعد الترجيح عند المفسرين ٢٨٨/١.

سورة الحج: الآيات ٥٢ - ٥٤

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤ ﴾[1].

اختار شيخ الإسلام أن سبب نزول هذه الآيات قصة الغرانيق الآتي ذِكْرُها.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "وللناس فيها قولان مشهوران؛ بعد اتِّفاقهم على أن التمنِّي هو التِّلاوة والقرآن كما عليه المفسرون من السلف كما في قوله: ﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[2].

وأما من أول النهي على تمني القلب فذاك فيه كلام آخر؛ وإن قيل: إن الآية تعم النوعين؛ لكن الأول هو المعروف المشهور في التفسير وهو ظاهر القرآن ومراد الآية قطعاً لقوله بعد ذلك: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ

---

(١) سورة الحج: الآيات ٥٢ – ٥٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧٨.

ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾.

وهذا كله لا يكون في مجرد القلب إذا لم يتكلم به النبي؛ لكن قد يكون في ظنه الذي يتكلم به بعضه النخل[١] ونحوها، وهو يوافق ما ذكرناه. وإذا كان التمني لا بد أن يدخل فيه القول ففيه قولان:

الأول: أن الإلقاء هو في سمع المستمعين و لم يتكلم به الرسول، وهذا قول من تأول الآية بمنع جواز الإلقاء في كلامه.

و الثاني: - وهو الذي عليه عامة السلف ومن اتبعهم - أن الإلقاء في نفس التلاوة كما دلت عليه الآية وسياقها من غير وجه كما وردت به الآثار المتعددة ولا محذور في ذلك إلا إذا أُقر عليه، فأما إذا نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته فلا محذور في ذلك وليس هو خطأ وغلط في تبليغ الرسالة إلا إذا أقر عليه.

ولا ريب أنه معصوم في تبليغ الرسالة أن يقر على خطأ كما قال: "فإذا حدثتكم عن الله بشيء فخذوا به فإني لن أكذب على الله"[٢] ولولا ذلك لما قامت الحجة به فإن كونه رسول الله يقتضي أنه صادق فيما يخبر به عن الله، والصدق يتضمن نفي الكذب ونفي الخطأ فيه، فلو جاز عليه الخطأ فيما يخبر به عن الله وأقر عليه لم يكن كل ما يخبر به عن الله.

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٣٥/٤، ح٢٣٦١، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً.عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والذين منعوا أن يقع الإلقاء في تبليغه فروا من هذا وقصدوا خيراً وأحسنوا في ذلك؛ لكن يقال لهم: ألقى ثم أحكم فلا محذور في ذلك؛ فإن هـذا يشبه النسخ لمن بلغه الأمر والنهي من بعض الوجوه، فإنه إذاً موقن مصدق برفع قول سبق لسانه به، ليس أعظم من إخباره برفعه"[1].

وقال – رحمه الله – في سياق حديثه عن عصمة الأنبياء: "ولكن هل يَصْدُرُ ما يستدركه الله فينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته؟ هذا فيه قولان، والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك.

والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة النجم بقوله: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى) وقالوا: إن هذا لم يثبت ومن علم أنه ثبت قال: هذا ألقاه الشيطان في مسامعهم و لم يلفظ به الرسول ﷺ ولكن السؤال وارد على هذا التقدير أيضاً، وقالوا في قوله: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ هو حديث النفس.

وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف فقالوا هذا منقول نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه والقرآن يدل عليه بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾

(١) مجموع الفتاوى ١٥/١٩٠ – ١٩٢.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فقالوا: الآثار في تفسير هذه الآية معروفة ثابتة في كتب التفسير والحديث، والقرآن يوافق ذلك، فإن نسخ الله لما يلقي الشيطان وإحكامه آياته إنما يكون لرفع ما وقع في آياته، وتمييز الحق من الباطل، حتى لا تختلط آياته بغيرها، وجعل ما ألقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم إنما يكون إذا كان ذلك ظاهراً يسمعه الناس، لا باطناً في النفس، والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ من جنس الفتنة التي تحصل بالنوع الآخر من النسخ، وهذا النوع أدل على صدق الرسول ﷺ وبعده عن الهوى من ذلك النوع؛ فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله وهو مصدق في ذلك فإذا قال عن نفسه: إن الثاني هو الذي من عند الله وهو الناسخ، وأن ذلك المرفوع الذي نسخه الله ليس كذلك كان أدلَّ على اعتماده للصدق، وقوله الحق، وهذا كما قالت عائشة رضي الله عنها: لو كان محمد كاتماً شيئا من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ (١) ألا ترى أن الذي يعظِّم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله ولو كان خطأ.

فبيان الرسول ﷺ أن الله أحكم آياته، ونسخ ما ألقاه الشيطان، هو أدل على تحريه للصدق وبراءته من الكذب، وهذا هو المقصود بالرسالة، فإنه

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧. والحديث أخرجه مسلم ١/١٥٩ ح (٢٨٧) كتاب الإيمان، باب معنى قوله عز وجل (ولقد رآه نزلة أخرى).

الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم تسليماً، ولهذا كان تكذيبه كفراً محضاً بلا ريب"[١].

الدراسة:

ذهب كثير من المفسرين وأهل السِّير إلى أن سبب نزول هذه الآيات قصة الغرانيق[٢]، والتي رُويت من طرق متعددة.

ومن ذلك ما رُوي عن سعيد بن جبير أنه قال: "لما نزلت هذه الآية: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾[٣] قرأها رسول الله ﷺ، فقال: تلك الغرانيق العُلى، وإن شفاعتهن لتُرتجى، فسجد رسول الله ﷺ[٤]، فقال المشركون: إنه لم يذكر

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٩١/١٠ – ٢٩٢، وانظر: الجواب الصحيح ٣٥/٢.

(٢) قال ابن الأثير في النهاية ٣٦٤/٣: "الغرانيق هاهنا: الأصنام، وهي في الأصل: الذكور من طير الماء، واحدها غُرْنُوق، وغُرْنَيْق، سمِّي به لبياضه، وقيل: الكُرْكيُّ، والغُرنوق أيضاً: الشابُّ الناعمُ الأبيض، وكانوا يزعمون أن الأصنام تُقرِّبهم من الله وتشفع لهم، فشُبِّهت بالطيور التي تعلو في السماء وترتفع"، وقال محمد الأمين الشنقيطي في رحلة الحج إلى بيت الله الحرام ص١٢٩: "ومعنى قول الشيطان: تلك الغرانيق العُلى: أن الأصنام في عُلو منْزلتها ورفعة شأنها كالغرانيق المرتفعة نحو السماء في طيرانها"، وانظر: أضواء البيان ٧٣٢/٥، وقال الحافظ في الفتح ٤٤٠/٨: "وقيل المراد بالغرانيق العُلى: الملائكة، وكان الكفار يقولون: الملائكة بنات الله ويعبدونها، فسيق ذكر الكل ليرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ فلما سمعه المشركون حَملوه على الجميع، وقالوا: قد عظَّم آلهتنا، ورضوا بذلك، فنسخ الله ذلك وأحكم آياته"، وانظر: تفسير الزمخشري ٣٧/٣، وابن عطية ٢١٢/١١ – ٢١٣، والقرطبي ٥٧/١٢.

(٣) سورة النجم: الآية ١٩.

(٤) أي: في نهايتها. وسجود المشركين عند سماع سورة النجم من النبي ﷺ وسجوده فيها ثابت في صحيح البخاري ٧٨١/٨، ح٤٨٦٢، كتاب التفسير، باب ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ وليس فيه
==

آلهتكم قبل اليوم بخير، فسجد المشركون معه، فأنزل الله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴾[1]"[2].

وعن محمد بن كعب القرظي، ومحمد بن قيس[3]، قالا: "جلس رسول الله ﷺ في نادٍ من أندية قريش كثير أهله، فتمنى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه فأنزل الله عليه: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴾[4]، فقرأها رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾[5] ألقى عليه الشيطان كلمتين: (تلك الغرانقة العلى وإن شفاعتهن لترجى) فتكلم بها ثم مضى، فقرأ السورة كلها، فسجد في آخر السورة وسجد

==

ذكر لهذه القصة، وقد ذكر العلماء لسجودهم هذا أسباباً، منها: أنهم سجدوا لدهشة أصابتهم، وخوف اعتراهم عند سماع السورة. انظر: الفتح ٧٨١/٨، وتفسير الألوسي ١٨٣/١٧.

(١) سورة الحج: الآيات ٥٢ — ٥٥.

(٢) أخرجه ابن جرير ١٧٦/٩، وعزاه في الدر ٦٦١/٤ لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه مرسلاً، وروي موصولاً عن ابن عباس، ذكره السيوطي في الدر ٦٦١/٤، وعزاه للبزار والطبراني وابن مردويه والضياء في المختارة، وقد ضعّفه البزار كما في كشف الأستار ٧٢/٣ح٢٢٦٣، والزيلعي في تخريج الكشاف٣٩٢/٢، والألباني في نصب المجانيق ص١٢.

(٣) هو محمد بن قيس بن مَخرمة بن المطّلب المطّلبي، يقال له رؤية، يروي عن النبي ﷺ مرسلاً، وعن عائشة وأبي هريرة – رضي الله عنهما –. انظر: تهذيب التهذيب ٤١٢/٩، وتقريب التهذيب ص٥٠٣.

(٤) سورة النجم: الآيتان ١ — ٢.

(٥) سورة النجم: الآيتان ١٩ — ٢٠.

القوم جميعاً معه، ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه، وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود، فرضوا بما تكلم به وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت وهو الذي يخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده؛ إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك.

قالا: فلما أمسى أتاه جبرائيل عليهما السلام فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال: ما جئتك بهاتين، فقال رسول الله ﷺ: افتريتُ على الله وقلت على الله ما لم يقل، فأوحى الله إليه: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[1] فما زال مغموماً مهموماً حتى نزلت عليه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ قال: فسمع من كان من المهاجرين بأرض الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، فرجعوا إلى عشائرهم وقالوا: هم أحب إلينا، فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان"[2].

ولهذه القصة رواياتٌ كثيرة كلها باطلة سنداً ومتناً[3]، وقد نصّ على

(١) سورة الإسراء: الآيات ٧٣ – ٧٥.

(٢) أخرجه ابن جرير ١٧٤/٩، وعزاه السيوطي في الدر ٦٦٢/٤ أيضاً لسعيد بن منصور، وضعَّفه الألباني في نصب المجانيق ص١٢.

(٣) لا يتسع المقام لذكر هذه الروايات وطرقها، وكلام الأئمة عليها هنا، ومن أراد الاطلاع عليها ==

بطلانها جمع من أهل العلم، من المفسرين والمحدثين، وأهل السيِّر، وغيرهم[١]، وإليك نصوصاً من كلامهم في بيان بطلانها إجمالاً:

قال الإمام الحافظ ابن خزيمة[٢]: "هذا من وضع الزنادقة"[٣].

وقال البيهقي[٤]: "هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل"، وقال ما معناه: "إن رواتها مطعون عليهم، وليس في الصحاح ولا في التصانيف الحديثية شيء مما ذكروه فوجب اطِّراحه"[٥].

==

يرجع إلى تفسير ابن جرير ١٧٤/٩ - ١٧٩، والدر المنثور للسيوطي ٦٦١/٤ - ٦٦٤، ونصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق للألباني، ودلائل التحقيق لإبطال قصة الغرانيق لعلي حسن عبد الحميد.

(١) بل صُنِّف في بيان بطلانها مصنفات ومن ذلك جزء للإمام الحافظ ابن خزيمة، ذكر ذلك الرازي في تفسيره ٤٤/٢٣، وهناك رسالة مخطوطة بعنوان: بطلان قصة الغرانيق، وأُخرى بعنوان: اللُّمعَةُ السُّنية في تحقيق الإلقاء في الأُمْنيِّة وكلاهما مجهولة المؤلف، انظر: دلائل التحقيق ص١٦، وأفردها من المعاصرين الشيخ المحدِّث محمد ناصر الدين الألباني في رسالة أسماها نصْب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، وتلميذه علي حسن في كتاب أسماه دلائل التحقيق لإبطال قصة الغرانيق، ولُبُّها من رسالة شيخه.

(٢) هو الحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي، أبو بكر، إمام نيسابور، كان عالماً بالحديث فقيهاً مجتهداً، ولد سنة ٢٢٣هـ بنيسابور، وتوفي بها سنة ٣١١هـ، من مؤلفاته: التوحيد وإثبات صفة الرب، والصحيح. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٦٥/١٤، وشذرات الذهب ٢٦٢/٢.

(٣) ذكره عنه الرازي في تفسيره ٤٤/٢٣.

(٤) هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر، من أئمة الحديث، ولد سنة ٣٨٤هـ، من مؤلفاته: الأسماء والصفات، ومناقب الإمام الشافعي، توفي سنة ٤٥٨هـ. انظر: وفيات الأعيان ٧٥/١ ترجمة (٢٨)، وشذرات الذهب ٣٠٤/٣.

(٥) ذكره عنه أبو حيان ٣٥٢/٦، والمناوي في الفتح السماوي ٨٤٢/٢،ولم أجده في كتبه.

وقال ابن حزم[١]: "وأما الحديث الذي فيه (الغرانيق) فكذب بحت موضوع؛ لأنه لم يصح قط من طريق النقل، ولا معنى للاشتغال به؛ إذْ وضعُ الكذب لا يعجز عنه أحد، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ الآية، فلا حجة لهم فيها؛ لأن الأماني الواقعة في النفس لا معنى لها، وقد تمنى النبي ﷺ إسلام عمِّه أبي طالب، ولم يُرد الله كونَ ذلك، فهذه الأماني التي ذكر الله لا سواها، وحاشا الله أن يتمنّى نبي معصية، وبالله التوفيق"[٢].

وممن أنكرها سنداً ومتناً أبو بكر ابن العربي المالكي[٣]، فقد بين بطلانها في عشر مقامات[٤].

ولتلميذه القاضي عياض[٥] – رحمه الله – كلام نفيس حول هذه القصة وكان مما قاله: "اعلم – أكرمك الله – أن لنا في الكلام على مشكل الحديث

---

(١) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد، عالم الأندلس، وأحد أئمة الإسلام، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ، وتوفي سنة ٤٥٦هـ، من مؤلفاته: الفصل في الملل والأهواء والنحل، والمحلى. انظر: سير أعلام النبلاء ١٨/١٨٤، والأعلام ٤/٢٥٤.

(٢) الفصل ٤/٤٨.

(٣) هو أبو بكر، محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، المعروف بابن العربي، محدِّث، فقيه مفسر مجتهد، ولد سنة ٤٦٨هـ، من مؤلفاته: أحكام القرآن، والعواصم من القواصم، توفي سنة ٥٤٣هـ. انظر: وفيات الأعيان ٤/٢٩٦ ترجمة (٦٢٦)، وطبقات المفسرين ٢/١٨٠.

(٤) أحكام القرآن ٣/١٣٠٠ – ١٣٠٣.

(٥) هو الإمام العلامة، القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي المالكي، إمام أهل الحديث في وقته، ولد سنة ٤٧٦هـ، وتوفي سنة ٥٤٤هـ، من مؤلفاته: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وشرح صحيح مسلم. انظر: السير ٢٠/٥١٢، والأعلام ٥/٩٩.

مأخذين:

أحدهما: في توهين أصله، والثاني: على تسليمه.

أما المأخذ الأول: فيكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند متصل سليم، وإنما أُولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقِّفون من الصُّحف كلَّ صحيح وسقيم. وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي[١] حيث قال: لقد بُلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون؛ مع ضعف نَقَلته واضطراب رواياته وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته؛ فقائل يقول: إنه في الصلاة، وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول: قالها وقد أصابته سِنة، وآخر يقول: بل حدَّث نفسه فسها، وآخر يقول: إنَّ الشيطان قالها على لسانه، وإنّ النبي ﷺ لمّا عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأتك، وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال: والله ما هكذا نزلت، إلى غير ذلك من اختلاف الرواة. ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسّرين والتابعين لم يسندها أحدٌ منهم، ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع فيه حديث شعبة[٢]: عن أبي بشر[٣]، عن سعيد بن

---

١) هو أبو الفضل بكر بن العلاء بن محمد القشيري البصري ثم المصري المالكي، فقيه محدث من مؤلفاته: الأحكام المختصرة، وأصول الفقه، توفي عام ٣٤٤. انظر شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ١/ ١١٩

(٢) هو الإمام الحافظ شعبة بن الحجاج بن الورد العَتَكي الأزدي، مولاهم الواسطي ثم البصري، أبو بسطام، كان الثوري يقول: "هو أمير المؤمنين في الحديث"، ولد سنة ٨٢هـ، وتوفي سنة ١٦٠هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٣٣٨/٤، وتقريب التهذيب ص٢٦٦.

(٣) هو جعفر بن أبي وحشية إياس اليشكري البصري ثم الواسطي، أحد الأئمة والحفاظ، مات ساجداً رحمه الله بمكة سنة ١٢٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٤٦٥/٥، وتهذيب التهذيب ٨٣/٢.

جبير، عن ابن عباس قال: فيما أحسب – الشك في الحديث – أن النبي ﷺ كان بمكة... وذكر القصة.

قال أبو بكر البزّار[١]: هذا الحديث لا نعلمه يُروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا، و لم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد[٢]، وغيره يُرسله عن سعيد بن جُبير وإنما يُعرف عن الكلبي[٣]، عن أبي صالح، عن ابن عباس، فقد بيَّن لك أبو بكر – رحمه الله – أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا.

وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه، الذي لا يوثق به، ولا حقيقة معه.

وأما حديث الكلبي فممّا لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوّة ضعفه وكذبه كما أشار إليه البزار – رحمه الله –.

والذي منه في الصحيح أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ وهو بمكة، فسجد معه المسلمون والمشركون والجنّ والإنس.

---

(١) هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، أبو بكر، من حفاظ الحديث، توفي بالرملة سنة ٢٩٢هـ، من مؤلفاته: المسند. انظر: تاريخ بغداد ٣٣٤/٤ ترجمة (٢١٥٧)، وشذرات الذهب ٢٠٩/٢.

(٢) هو أمية بن خالد بن الأسود القيسي البصري، أبو عبد الله، صدوق، مات سنة مائتين، أو إحدى ومائتين. انظر: تقريب التهذيب ص١١٤ ترجمة رقم (٥٥٤)، وشذرات الذهب ٣٥٩/١.

(٣) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي، أبو النضر، نسابة راوية عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، توفي بالكوفة سنة ١٤٦هـ، من مؤلفاته: تفسير القرآن، وهو ضعيف الحديث. انظر: تهذيب التهذيب ١٧٨/٩، وتقريب التهذيب ص٤٧٩.

هذا توهينه من طريق النقل، فأمّا من جهة المعنى فقد قامت الحجة، وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته، عن مثل هذه الرذيلة، إمّا من تمنِّيه أن يُنَزَل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله، وهو كفر، أو أن يتسوّر عليه الشيطان، ويشبِّه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبّهه جبريل عليه السلام، وذلك كله ممتنع في حقه ﷺ، أو يقول ذلك النبي ﷺ من قبل نفسه عمداً، وذلك كفر أو سهواً وهو معصوم من هذا كله.

وقد قرّرنا بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمداً ولا سهواً، أو أن يُشبَّه عليه ما يُلقيه الملك بما يُلقي الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيلٌ، أو أن يتقوّل على الله لا عمداً ولا سهواً، ما لم ينَزَّل عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[2].

ووجه ثانٍ: وهو استحالة هذه القصة نظراً وعُرْفاً، وذلك أن هذا الكلام لو كان كما رُوي لكان بعيد الالتئام، لكونه متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذّم، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبي ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك، وهذا لا يخفى على أدنى متأمِّل، فكيف بمن رجح حلمه، واتسع باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه.

---

(١) سورة الحاقة: الآيات ٤٤ – ٤٦.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٥.

ووجه ثالث: أنه عُلم من عادة المنافقين ومعاندي المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلةٍ، وتخليط العدوِّ على النبي ﷺ لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين والشّمات بهم الفينة بعد الفينة، وارتداد من في قلبه مرضٌ ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة، ولم يحكِ أحدٌ في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة، كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردّة، وكذلك ما روى في قصة القضية[١]، ولا فتنة أعظم من هذه البيِّنة لو وُجدت، ولا تَشْغِيْبَ للمعادي حيئنذ أشدّ من هذه الحادثة لو أمكنت، فما روي عن معاند فيها كلمة، ولا عن مسلم بسببها بنتُ شفة[٢]، فدل على بطلها واجتثاث أصلها.

ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس أو الجن هذا الحديث على بعض مغفّلي المحدثين ليلبِّس به على ضعفاء المسلمين.

ووجه رابع: ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾[٣].

وهاتان الآيتان يرُدّان الخبر الذي رووه؛ لأنّ الله تعالى ذكر أنهم كادوا

(١) المراد بها صلح الحديبية.
(٢) أي: كلمة.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٣.

يفتنونه حتى يفتري، وأنّه لولا أن ثبّته لكاد يركن إليهم.

فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عصمه من أن يفترى، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً، فكيف كثيراً ! وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم، وأنه قال ﷺ: "افتريت على الله، وقلت ما لم يقل"، وهذا ضد مفهوم الآية، وهي تُضْعف الحديث لو صح، فكيف ولا صحة له.

وهذا مثل قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ﴾[(١)].

وقد رُوي عن ابن عباس: كل ما في القرآن (كاد) فهو ما لا يكون؛ قال الله تعالى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[(٢)]، و لم يذهب و ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾[(٣)] و لم يفعل.

قال القشيري القاضي[(٤)]: ولقد طالبته قريش وثقيف إذْ مرّ بآلهتهم أن يُقْبِلَ بوجهه إليها، ووعدوه الإيمان به إن فعل، فما فعل، ولا كان ليفعل.

---

(١) سورة النساء: الآية ١١٣.

(٢) سورة النور: الآية ٤٣.

(٣) سورة طه: الآية ١٥.

(٤) هو الإمام الزاهد عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري الشافعي الصوفي، أبو القاسم، ولد سنة ٣٧٦هـ، من مؤلفاته: التفسير الكبير، والرسالة القشيرية، توفي سنة ٤٦٥هـ. انظر: تاريخ بغداد ٨٣/١١ ترجمة رقم (٥٧٦٣)، وسير أعلام النبلاء ٢٢٧/١٨.

قال ابن الأنباري[١]: ما قارب الرسول ولا ركَنْ.

وقد ذُكرت في معنى هذه الآية تفاسيرُ أُخر ما ذكرناه من نص الله على عصمة رسوله يردُّ سَفْسَافها[٢]، فلم يبق في الآية إلا أن الله تعالى امتنّ على رسوله بعصمته وتثبيته مما كاده به الكفّار، وراموا من فتنته، ومرادنا من ذلك تنْزيهه وعصمته ﷺ، وهو مفهوم الآية.

وأما المأخذ الثاني: فهو مبني على تسليم الحديث لو صحَّ، وقد أعاذنا الله من صحته، ولكن على كل حال فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغثُّ والسَّمين".

ثم ذكر هذه الأجوبة وتعقَّبها، ورجح الأخير منها، وهو الذي أجاب به ابن العربي، فقال: "والذي يظهر ويترجّح في تأويله[٣] عنده وعند غيره من المحقِّقين على تسليمه أن النبي ﷺ كان – كما أمره ربه – يرتِّل القرآن ترتيلاً ويفصِّل الآي تفصيلاً في قراءته، كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصُّد الشيطان لتلك السكتات ودسُّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكياً نغمة النبي ﷺ بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفّار، فظنّوها من قول النبي ﷺ وأشاعوها، ولم يقدح ذلك عند المسلمين بحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله وتحقّقهم من حال النبي ﷺ في ذمِّ الأوثان وعيبها على ما عُرف منه.

---

(١) هو الإمام اللغوي محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسين بن بيان بن سماعة، أبو بكر، ولد سنة ٢٧١هـ، كان صدوقاً ديناً، من مؤلفاته: الوقف والابتداء، وكتاب المشكل، توفي سنة ٣٢٨هـ. انظر: تاريخ بغداد ١٨١/٣، وسير أعلام النبلاء ٢٧٤/١٥.

(٢) أي: رديئها. انظر: مختار الصحاح ص١٣٧.

(٣) أي: تأويل هذا الحديث.

وقد حكى موسى بن عقبة[١] في مغازيه نحو هذا، وقال: "إن المسلمين لم يسمعوها وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين وقلوبهم، ويكون ما رُوي من حُزن النبي ﷺ لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة"[٢].

وقال الرازي: "أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة، واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول"، ثم ذكر وجوه ذلك[٣].

وقال أبو حيان: "وذكر المفسرون في كتبهم ابنُ عطية، والزمخشري، فمن قبلهما، ومن بعدهما، ما لا يجوز وقوعه من آحاد المؤمنين منسوباً إلى المعصوم صلوات الله عليه، وأطالوا في ذلك، وفي تقريره سؤالاً وجواباً"[٤]، ثم ذكر أقوال الأئمة في تضعيفها، وقرر ذلك بالأدلة النقلية والعقلية.

وقال الحافظ ابن كثير: "قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظنّاً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلّها مرسلة، و لم أرها مُسندةً من وجه صحيح، والله أعلم"[٥].

---

(١) هو موسى بن عقبة بن أبي عيّاش الأسدي، مولى آل الزبير، ثقة فقيه إمام في المغازي، توفي سنة إحدى وأربعين ومائة، وقيل بعد ذلك، من مؤلفاته: المغازي. انظر: الجرح والتعديل ١٥٤/٨، وتقريب التهذيب ص٥٥٢.

(٢) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ٧٥٠/٢ – ٧٦٠، وانظر هذه الأجوبة أو بعضها في تفسير الثعلبي ٣٠/٧، والماوردي ٣٥/٤، والبغوي ٢٩٤/٣، وفتح الباري ٥٥٩/٨، والألوسي ١٧٩/١٨.

(٣) تفسيره ٤٤/٢٣ – ٤٨.

(٤) تفسيره ٣٥٢/٦.

(٥) تفسيره ٢٢٣٩/٣.

وقال الشوكاني: "ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه"(١).

وممن أنكرها شهابُ الدين الألوسي في تفسيره، ونقل أقوال الأئمة في ذلك، وذكر ما يترتب على إثباتها من المفاسد(٢).

وممن أنكرها سنداً ومتناً وأجاد في ذلك محمد الأمين الشنقيطي حيث قال بعد أن ذكرها: "وقد قدّمنا في هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول، ومثلنا لذلك بأمثلة متعددة، وهذا القول الذي زعمه كثير من المفسرين وهو أن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ هذا الشرك الأكبر والكفر البواح الذي هو قولهم: (تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى) يعنون اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، الذي لا شك في بطلانه في نفس سياق آيات النجم التي تخللها إلقاء الشيطان المزعوم قرينة قرآنية واضحة على بطلان هذا القول؛ لأن النبي ﷺ قرأ بعد موضع الإلقاء المزعوم بقليل قوله تعالى في اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾(٣) وليس من المعقول أن النبي ﷺ يسب آلهتهم هذا السب العظيم في سورة النجم متأخراً عن ذكره لها بخير المزعوم إلا

(١) تفسيره ٣/٦٥٣، ثم ذكر أقوال الأئمة في بطلانها.
(٢) تفسيره ١٨/١٧٧ وما بعدها.
(٣) سورة النجم: الآية ٢٣.

وغضبوا و لم يسجدوا، لأن العبرة بالكلام الأخير، مع أنه قد دلت آيات قرآنية على بطلان هذا القول، وهي الآيات الدالة على أن الله لم يجعل للشيطان سلطانا على النبي ﷺ وإخوانه من الرسل وأتباعهم المخلصين، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾[٣] وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾[٤] وعلى القول المزعوم أن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ ذلك الكفر البواح فأي سلطان له أكبر من ذلك.

ومن الآيات الدالة على بطلان ذلك القول المزعوم قوله تعالى في النبي ﷺ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[٥] وقوله: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾[٦] وقوله في القرآن العظيم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا

(١) سورة النحل: الآيتان ٩٩ – ١٠٠.
(٢) سورة الحجر: الآية ٤٢.
(٣) سورة سبأ: الآية ٢١.
(٤) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.
(٥) سورة النجم: الآيتان ٣ – ٤.
(٦) سورة الشعراء: الآيتان ٢٢١ – ٢٢٢.
(٧) سورة الحجر: الآية ٩.

﴿يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[١] فهذه الآيات القرآنية تدل على بطلان القول المزعوم".

ثم بيَّن بطلانها روايةً، ثم قال: "والحاصل أن القرآن دل على بطلانها، ولم تثبت من جهة النقل مع استحالة الإلقاء على لسانه ﷺ لما ذكر شرعاً، ومن أثبتها نسب التلفظ بذلك الكفر للشيطان فتبين أن نطق النبي ﷺ بذلك الكفر ولو سهواً مستحيل شرعاً، وقد دل القرآن على بطلانه وهو باطل قطعاً على كل حال"[٢].

وقال الألباني بعد أن ذكر رواياتِ هذه القصة وطرقها: "تلك هي روايات القصة، وهي كلها كما رأيت معلّلة بالإرسال والضعف والجهالة، فليس فيها ما يصلح للاحتجاج به، لا سيما في مثل هذا الأمر الخطير، ثم إن مما يبيِّن ضعفها بل بطلانها ما فيها من الاختلاف والنكارة مما لا يليق بمقام النبوة والرسالة، ثم بيَّن نكارة متنها من سبعة وجوه"[٣].

وممن أنكرها وبين بطلانها: الشيخ محمد عبده[٤] [٥]، والقاسمي[٦]، وابن

---

(١) سورة فصلت: الآيتان ٤١ – ٤٢.

(٢) أضواء البيان ٧٢٨/٥ – ٧٣٣، وله في رحلة الحج ص١٢٨ – ١٣٥ كلام أوسع.

(٣) نصب المجانيق ص٤ – ١٩.

(٤) هو محمد عبده بن حسن خير الله الغرابلي الحنفي المصري، مفتي الديار المصرية، من رواد المدرسة العقلية الحديثة، تتلمذ على يد جمال الدين الأفغاني، وتتلمذ عليه رشيد رضا، من مؤلفاته: شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، والإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، توفي سنة ١٣٢٣هـ. انظر: الأعلام ٢٥٢/٦، ومعجم المؤلفين ٢٧٢/١٠.

(٥) وله كلام طويل في نقد سندها ومتنها، انظر: تفسير القاسمي ٤٦/١٢، والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص٣١٤ – ٣٢٢.

(٦) تفسيره ٣٨/١٢، وله كلام طويل ونقولات كثيرة في ردها.

عاشور[١]، ومحمد الصادق عرجون[٢]،والدكتور محمد بن محمد أبو شهبة[٣].

وقد أورد هذه القصة بعضُ المفسرين، وسكتوا عنها، ومنهم ابن جرير[٤]، والزجاج[٥]، والثعلبي[٦] [٧]، والسمرقندي[٨]، والماوردي[٩]، والواحدي[١٠]، والسمعاني[١١]، والبغوي[١٢]، والزمخشري[١٣]، وابن جزي[١٤]، والسعدي[١٥].

وقد أثبت هذه القصة شيخُ الإسلام كما تقدم، ولكن على سبيل الإجمال، لم يتحدث عن رواياتها وطرقها، وممن أثبت هذه القصة الحافظ ابن حجر حيث

---

(١) تفسيره ٣٠٣/١٧ – ٣٠٦.

(٢) وله كلام طويل – رحمه الله – في بيان بطلان متنها، انظر كتاب: محمد رسول الله ٣٠/٢-١٥٠، وما ذكرته إنما هي نماذج مختارة لمن أنكرها، وإلا فإن عامّة العلماء من المفسرين والمحدثين وغيرهم على بطلانها.

(٣) انظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص ٣١٤ – ٣٢٣.

(٤) تفسيره ١٧٤/٩.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٤٣٤/٣، ولم يذكر نصَّها وإنما أشار إليها.

(٦) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، مفسر له اشتغال بالتاريخ، من مؤلفاته: الكشف والبيان في تفسير القرآن، وعرائس المجالس في قصص الأنبياء، توفي سنة ٤٢٧هـ. انظر: وفيات الأعيان ٧٩/١ ترجمة رقم (٣١)، وطبقات المفسرين للداوودي ٦٥/١ ترجمة رقم (٥٩).

(٧) تفسيره ٢٩/٧.

(٨) تفسيره ٣٩٩/٣ – ٤٠٠.

(٩) تفسيره ٣٥/٤.

(١٠) تفسيره الوسيط ٢٧٦/٣.

(١١) تفسيره ٤٤٧/٣ – ٤٤٩.

(١٢) تفسيره ٢٩٢/٣.

(١٣) الكشاف ٣٧/٣.

(١٤) تفسيره ٦١/٢.

(١٥) تفسيره ص٥٤٢.

قال بعد أن ساق بعض رواياتها: "وكلها سِوى طريق سعيد بن جبير؛ إما ضعيف، وإلا منقطع، لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً"، ثم ردَّ على ابن العربي والقاضي عياض تضعيفهما للقصة مبيناً أن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجُها دلَّ ذلك على أن لها أصلاً[١].

وقد أجاب الألباني عن ذلك من وجهين: أحدهما: أن قاعدة تقوية الحديث بكثرة الطرق ليست على إطلاقها...

والثاني: أن الحديث المرسل لا يحتج به، ولو كان المُرسِل ثقةً[٢].

وممن أثبتها سنداً ومتناً إبراهيم الكُوراني[٣]، كما نقل عنه الألوسي، وقد ردَّ عليه رداً وافياً[٤].

والذين أثبتوا القصة منهم من قال ألقى الشيطان هذا الكلام على لسان رسول الله ﷺ كما هو صريح عامة الروايات، وهو ما ذهب إليه شيخ الإسلام.

ومنهم من قال إن الشيطان لم يُلقها على لسان رسول الله ﷺ، وإنما ألقاه في مسامع المشركين، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان يرتِّل القرآن ترتيلاً تتخلله سكتات، فراقب الشيطان سكتات النبي ﷺ، ونطق بتلك الكلمات محاكياً نغمته ﷺ بقوله، بحيث سمعه من دنا إليه فظنها المشركون ومن في قلوبهم

---

(١) فتح الباري ٤٣٩/٨ [ط السلفية]، وانظر: تخريج أحاديث الكشاف له ١١٤/٤.

(٢) نصب المجانيق ص٢٠ – ٢٤، ٣٣ – ٣٦، كما أجاب عن كلامه محمد أبو شهبة ص٣١٨.

(٣) هو برهان الدين إبراهيم بن حسن الكُوراني، من فقهاء الشافعية، ولد بـ(شهرزور) وقدم المدينة وتوفي بها عام ١١٠١هـ. انظر: الأعلام ٣٥/١.

(٤) تفسير الألوسي ١١٧٨/١٧ – ١١٨٦.

مرض من قوله وأشاعوها، وهذا الذي استظهره ابن العربي[١]، و القاضي عياض كما تقدم، واختار هذا الجواب أيضاً القرطبي[٢]، وابن جزي[٣]، والحافظ ابن حجر[٤]، والشنقيطي[٥] على تقدير ثبوتها.

وتقدم أن للعلماء في توجيه هذه القصة على تقدير ثبوتها مسالك ذكرها القاضي عياض كما تقدم، وذكرها عنه الحافظ والسمعاني، وقال: "الأكثرون من السلف ذهبوا إلى أن هذا شيء جرى على لسان الرسول ﷺ بإلقاء الشيطان من غير أن يعتقد، وذلك محنةً وفتنةً من الله، وعادة، والله يمتحن عباده بما شاء ويفتنهم بما يريد، وليس عليه اعتراض لأحد، وقالوا: إن هذا وإن كان غلطاً عظيماً، فالغلط يجوز على الأنبياء إلا أنهم لا يقرُّون عليه"[٦].

وإذا تبيَّن بطلان هذه القصة المصنوعة سنداً ومتناً، وأن العلماء المحققين من المفسرين وغيرهم قديماً وحديثاً قد تتابعوا وتوافقوا على القول بنكارتها، وأن من أثبتها أوَّلها بتأويلات شتى مضت الإشارة إليها، أقول: إذا تبيَّن لنا هذا عَرَفْنا أن ما ذهب إليه شيخُ الإسلام في شأنها شاذٌ، وغريب، وأنه لا يتفق مع أصوله المعروفة لمن يتتبع كلامه على نصوص الكتاب والسنة؛ فإنه كثيراً ما يضعِّف أسانيدَ، وروايات أقوى من هذه وأسلم، ويردُّها لنكارة متْنها، وكثيراً ما يَرُدُّ

(١) أحكام القرآن ١٣٠٣/٣، وانظر: تفسير القرطبي ٥٥/١٢.
(٢) تفسيره ١٥٦/١٢.
(٣) تفسيره ٦١/٢.
(٤) فتح الباري ٤٤٠/٨ [ط السلفية].
(٥) رحلة الحج ص١٢٨.
(٦) تفسيره ٤٤٩/٣.

بعضَ أقوال السلف لمخالفتها لما هو معلوم من قواعد الشريعة ومقاصدها، ولذلك أمثلته كثيرة بعضها في هذه الرسالة.

وأمَّا قوله – رحمه الله – عمَّا ذهب إليه إنه قول عامَّة السلف ومن تبعهم، فيناقش بأنه لم يثبت عن واحد من السلف، وتقدم تقرير ذلك، ولعلّ هذه المرويات المتعددة عنهم ترجع إلى مصدر واحد، كما قيل: إن ابن الزِّبَعْري[1] هو الذي اخترعها[2].

وأما قوله: "هذا النوع أدلُّ على صدق الرسول ﷺ، وبعده عن الهوى"... فهو – في رأيي – غير وجيه، ودلائل صدقه ﷺ معلومة من جهات أخرى كثيرة جداً لا إشكال فيها.

هذا وقد تعقَّب القاسميُّ شيخَ الإسلام في هذه المسألة، وقال: "في كلامه – رحمه الله – نظر من وجوه:

أولاً: دعواهُ أن المأثور يوافق القرآن؛ فإنه ذهاب إلى أن الإلقاء: إلقاء الآيات، ولا تدلُّ الآية عليه، لا مطابقةً ولا التزاماً، بل القول بذلك ينافي التنْزيل والوحي، منافاة النار للماء كما سنراه.

وثانياً: دعواه أن تلك الرواية نَقْلَها ثابتٌ لا يمكن القدح فيه، فقد قدح فيها من لا يُحصى من المتقدمين والمتأخرين...

---

(١) عبد الله بن الزبعري السهمي القرشي، شاعر قريش في الجاهلية، كان شديداً على المسلمين، أسلم بعد الفتح ومدح النبي ﷺ. انظر: الأعلام ٤/٨٧.

(٢) ذكره الطيبي في حاشيته على الكشاف نقلاً عن بعض المؤرِّخين، انظر: تفسير ابن عاشور ١٧/٣٠٥، وحاشية الطيبي ما زالت مخطوطة وقد حقق أجزاء من أولها في الجامعة الإسلامية في المدينة.

ثالثاً: اعترافه بأن السؤال وارد على تقدير ثبوتها، وإلقاء الشيطان ذلك في مسامعهم، مما يُبرهن أن فيها مغامز تنبذها العقول، كما نبذتها صحةُ النقول"[١].

معنى الآية:

هذه الآية فيها تسْلية لرسول الله ﷺ، أي: لا يحزنك ذلك فقد أصاب مثلُ هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء[٢].

واختلف المفسرون في معناها على أقوال:

القول الأول: أن ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ بمعنى قرأ وتلا وحدَّث، و ﴿أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ قراءته.

قال ابن عباس: "يقول: إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه"[٣].

وبه قال مجاهد والضحاك[٤]، وهو قول جمهور المفسرين[٥].

قال الفراء: "التمني: التلاوة، وحديث النفس أيضاً"[٦]، واختاره الزجاج[٧].

---

(١) تفسيره ٤٣/١٢، ولمحمد صادق عرجون مناقشة طويلة لرأي الشيخ، انظر كتابه محمد رسول الله ٨٧/٢-١٠٤.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤١/٣.

(٣) أخرجه ابن جرير ١٧٧/٩، وذكره عنه البخاري ٤٣٨/٨ في صحيحه معلقاً.

(٤) أخرجه عنهما ابن جرير ١٧٨/٩، قال مجاهد: "إذا قال"، وقال الضحاك: "يعني بالتمني القراءة والتلاوة".

(٥) نسبه لأكثر المفسرين الثعلبي ٣٠/٧، والسمعاني ٤٧٧/٣، والبغوي ٢٩٣/٣، وابن الجوزي ٣٠٣/٥، والشوكاني ٦٥٤/٣.

(٦) معاني القرآن ٢٢٩/٢.

(٧) معاني القرآن وإعرابه ٤٣٣/٣.

قال ابن جرير: "وهذا القول أشبه بتأويل بدلالة قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ على ذلك؛ لأن الآيات التي أخبر الله جل ثناؤه أنه يحكمها لا شك أنها آيات تنْزيله فمعلوم أن الذي ألقي فيه الشيطان هو ما أخبر الله تعالى ذكره أنه نسخ ذلك منه وأبطله ثم أحكمه بنسخه ذلك منه، فتأويل الكلام إذن: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا﴾ تلا كتاب الله وقرأ أو حدث وتكلم ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ في كتاب الله الذي تلاه وقرأه أو في حديثه الذي حدث وتكلم ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ يقول تعالى: فيذهب الله ما يلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله"(١).

واستدلّ كثيرٌ من المفسرين(٢) لهذا القول بقول الشاعر(٣):

تمنّى كتابَ الله أولَ ليلةٍ ** وآخرها لاقى حمامَ المقادر

ومن المفسِّرين من فرَّق بين: قرأ، وحدَّث، وحمل قول ابن عباس على

---

(١) تفسيره ١٧٨/٩.

(٢) استدل به الثعلبي ٣٠/٧، والسمعاني ٤٧٧/٣، والزمخشري ٣٧/٣، وابن عطية ٢١١/١٢، وابن كثير ٢٤١/٣.

(٣) نسبه بعضهم لحسان بن ثابت ﷺ، وليس في ديوانه، وذكره في لسان العرب ٤٢٨٤/٢ مادة (منى).

الثاني[١]، والظاهر أن مراد ابن عباس الأول، هذا الذي فهمه ابن جرير وغيره، قال الشوكاني: "فحاصل معنى الآية: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ، ولا جرى على لسانه، وعلى تقدير أن معنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ حدَّث نفسه، فالمعنى: أنه إذا حدَّث نفسه بشيء تكلم به الشيطان وألقاه في مسامع الناس، من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه"[٢].

وقد حكى شيخ الإسلام الاتفاق على أن التمني بمعنى التلاوة، كما تقدم.

وقال ابن عطية: "ولا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة"[٣].

وقال الرازي: "قيل المراد بذلك على هذا المعنى: ما يجوز أن يسهو الرسول ﷺ فيه، ويشتبه على القاري دون ما ردده من قوله: (تلك الغرانيق العلى)"[٤].

واختاره القاضي عياض ووجهه بقوله: "وأولى ما يقال فيها ما عليه الجمهور من المفسرين: أن التمنِّي هاهنا التلاوة، وإلقاء الشيطان فيها شغله

---

(١) انظر: إعراب القرآن للنحاس ١٠٤/٣، وتفسير الشوكاني ٦٥٤/٣، وكأن البخاري يفرِّق بينها حيث حكى قول ابن عباس ثم قال: "ويقال ﴿أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ قراءته".

(٢) تفسيره ٦٥٤/٣ باختصار.

(٣) تفسيره ٢١٢/١١.

(٤) تفسير الرازي ٤٥/٢٣.

بخواطر وأذكار من أمور الدنيا للتَّالي[١] حتى يُدخل عليه الوهم والنسيان فيما تلاه، أو يدخل غير ذلك في أفهام السامعين من التحريف وسوء التأويل ما يزيله الله وينسخه، ويكشف لبسه ويحكم آياته"[٢].

وقال الألوسي: "والمعنى: وما أرسلنا من قبلك رسولاً ولا نبياً إلا وحاله أنه إذا قرأ شيئا من الآيات ألقى الشيطان الشُّبَه والتخيلات فيما يقرؤه على أوليائه، ليجادلوه بالباطل ويردوا ما جاء به كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[٤] وهذا كقولهم عند سماع قراءة الرسول ﷺ: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾[٥] إنه يحل ذبيح نفسه، ويحرم ذبيح الله تعالى، وقولهم على ما في بعض الروايات عند سماع قراءته عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٦] إن عيسى عبد من دون الله تعالى والملائكة عليهم السلام عبدوا

---

(١) أي: القاري.
(٢) الشفا ٢/٧٤١.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢١.
(٤) سورة الأنعام: الآية ١١٢.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٧٣.
(٦) سورة الأنبياء: الآية ٩٨.

من دون الله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي: فيبطل ما يلقيه من تلك الشبه ويذهب به بتوفيق النبي ﷺ لرده أو بإنزال ما يرده ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: يأتي بها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بوجه من الوجوه"(١).

وقال محمد عبده: "وفي تفسيرها وجهان:

الأول: أن التمنى بمعنى القراءة، إلا أن الإلقاء لا بالمعنى الذي ذكره المبطلون، بل بمعنى إلقاء الأباطيل والشبه مما يحتمله الكلام، ولا يكون مراداً للمتكلم، ولكن يدعي أن ذلك يؤدى إليه، وذلك من عمل المعاجزين، الذي دأبهم محاربة الحق، يتبعون الشبهة، ويسعون وراء الريبة، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان حينئذ لأنه مثير الشبهات بوساوسه، ويكون المعنى: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا حدث قومه عن ربه، أو تلا وحياً أنزل الله فيه هداية لهم، قام في وجهه مشاغبون يتقولون عليه ما لم يقله، ويحرفون الكلم عن مواضعه، وينشرون ذلك بين الناس، ولا يزال الأنبياء يجالدونهم ويجاهدون في سبيل الحق، حتى ينتصر، فيسنخ الله ما يلقي الشيطان من شبه، ويثبت الحق.

وقد وضع الله هذه السنة في الخلق ليتميز الخبيث من الطيب، فيفتتن ضعفاء الإيمان الذين في قلوبهم مرض، ثم يتمحص الحق عند أهله، وهم الذين أوتوا العلم، فيعلمون أنه الحق من ربهم، وتخبت له قلوبهم"(٢).

---

(١) تفسيره ١٧/١٧٣.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص٣٢١، ويأتي ذكر الوجه الثاني.

وقال الشنقيطي: "الذي يظهر لنا أنه الصواب وأن القرآن يدل عليه دلالة واضحة وإن لم ينتبه له من تكلم على الآية من المفسرين[١] هو أن ما يلقيه الشيطان في قراءة النبي الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر أو أساطير الأولين، وأنها مفتراة على الله ليست منَزلة من عنده، والدليل على هذا المعنى أن الله بيَّن أن الحكمة في الإلقاء المذكور امتحانُ الخلق؛ لأنه قال: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، ثم قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾، فقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ يدل على أن الشيطان يلقي عليهم أن الذي يقرأه النبي ليس بحق، فيصدقه الأشقياء، ويكون ذلك فتنةً لهم، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم، ويعلمون أنه الحق لا الكذب، كما يزعم لهم الشيطان في إلقائه، فهذا الامتحان لا يناسب شيئاً زاده الشيطان من نفسه في القراءة، والعلم عند الله – تعالى –"[٢].

القول الثاني: أن المراد بالتَّمنِّي في الآية: التَّمنِّي المعروف، أي: أحبَّ وأراد واشتهى إسلام أمته وطاعتهم لله ورسله، وتقدم قول الفراء: "وحديث النفس".

---

(١) وقد سبقه إلى هذا المعنى القاضي عياض، والألوسي، ومحمد عبده، كما تقدم، فلعله لم يطَّلع على ذلك.

(٢) تفسيره ٥/٧٣٢.

قال ابن عطية: "وتمنَّى: معناه المشهور: أرادَ وأحبَّ"(١).

قال الرازي: "وأما إذا فسَّرناها بالخاطر، وتمنِّي القلب، فالمعنى أن النبي ﷺ: متى تمنَّى بعض ما يتمناه من الأمور، وسوس الشيطان إليه الباطل، ويدعوه إلى ما لا ينبغي، ثم إن الله ينسخ ذلك ويبطله ويهديه إلى ترك الالتفات إلى وسوسته"(٢).

وقال ابن جُزي: "وقيل: هو التمنِّي بمعنى حُب الشيء، وهذا المعنى أشهر في اللفظ، أي تمنَّى النبي ﷺ مقاربةَ قومه واستئلافهم"(٣).

وقال القاسمي: "﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: رغب في انتشار دعوته، وسرعة علو شرعته ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: بما يصدُّ عنها، ويصرف المدعوِّين عن إجابتها"(٤).

وقال محمد عبده مبيِّناً المعنى الثاني للتَّمنِّي: "المراد به: تشهِّي حصول الأمر المرغوب فيه وحديث النفس بما كان ويكون، والأمنية من هذا المعنى، وما أرسل الله من رسول، ولا نبي ليدعو قومه إلى هدى جديد، أو شرع سابق إلا وغايةُ مقصوده، وجل أمانيه أن يؤمن قومه، وكان نبينا من ذلك في المقام الأعلى:

---

(١) تفسيره ١١/٢١٠.
(٢) تفسيره ٢٣/٤٧، ثم ذكر وجوه وسوسة الشيطان له.
(٣) تفسيره ٢/٦١.
(٤) تفسيره ١٢/٣٦.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[١]، ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[٢]، ويكون المعنى: وما أرسلنا من رسول ولا نبي، إلا إذا تمنى هذه الأمنية السامية، ألقى الشيطان في سبيله العثرات، وأقام بينه وبين مقصده العقبات، ووسوس في صدور الناس، فثاروا في وجهه، وجادلوه بالسلاح حيناً وبالقول حيناً آخر، فإذا ظهروا عليه والدعوة في بدايتها، ونالوا منه وهو قليل الأتباع، ظنوا أن الحق في جانبهم، وقد يستدرجهم الله جرياً على سنته، يجعل الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالاً، فينخدع بذلك الذين في قلوبهم شك ونفاق، ولكن سرعان ما يمحق الله ما ألقاه الشيطان من الشبهات، وينشئُ من ضعف أنصار الآيات قوة، ومن ذلهم عزة، وتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، ليعلم الذين أوتوا العلم أن ما جاء به الرسل هو الحق، فتخبت له قلوبهم، وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم، هذا هو الحق، وما عدا ذلك فهو باطل"[٣].

وقال الشنقيطي: "ومعنى كون الإلقاء في أمنيته على هذا الوجه: أن الشيطان يلقي وساوسه وشبهه ليصدَّ بها عمّا تمناه الرسول أو النبي، فصار الإلقاء كأنه واقع فيها بالصدِّ عن تمامها والحيلولة دون ذلك"[٤].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٦.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٣.

(٣) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص٣٢١ – ٣٢٣.

(٤) تفسيره ٧٢٨/٥.

وقال ابن عاشور: "والتمني: كلمة مشهورة، وحقيقتها طلب الشيء العسير حصوله، والأُمنيَّة: الشيء المُتمنَّى، وإنما يتمنَّى الرسلُ والأنبياء أن يكون قومهم كلهم صالحين مهتدين..."، ثم قال: "ومعنى إلقاء الشيطان في أُمنية النبي والرسول إلقاء ما يضادُّها، كمن يمكر فيلقي السمَّ في الدسم، فإلقاء الشيطان بوسوسته: أن يأمر الناس بالتكذيب والعصيان، ويلقي في قلوب أئمة الكفر مطاعن يبثُّونها في قومهم، ويروِّج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكر البرهان..."[(١)].

والراجح – والله أعلم – أن قصة الغرانيق باطلة، وأن المراد بالتمني التلاوة، وأن معنى الآية ما ذهب إليه القاضي عياض، والألوسي، ومحمد عبده، والشنقيطي، من أن المعنى: ما يلقيه الشيطان في قراءة النبي ﷺ من الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها.

(١) تفسيره ٢٩٧/١٧ – ٢٩٩، وضعّف إطلاق الأُمنية على القراءة ص٢٩٩.

سورة النور: الآية ٣

قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾[1].

اختار شيخ الإسلام أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وأن المراد بالنكاح في الآية العقد.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "وقد ادَّعى بعضهم أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾[2]، وزعموا أن البغيَّ من الْمُحصنات، وتلك الآيات حجة عليهم؛ فإن أقلَّ ما في الإحصان العفّة...

وكذلك من زعم أن النكاح هنا هو الوطء، والمعنى: أن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة والزانية لا يطؤها إلا زان أو مشرك، وهذا أبلغ في الحجة عليهم فمن وطئ زانية أو مشركة بنكاح فهو زان، وكذلك من وطئها زان، فإن ذم الزاني بفعله الذي هو الزنا، حتى لو استكرهها أو استدخلت ذكره وهو نائم كانت العقوبة للزاني دون قرينه، وهذه المسألة مبسوطة في كتب الفقه.

والمقصود قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ فإن هذا يدل على أن الزاني لا يتزوج إلا زانية أو مشركة وأن ذلك حرام على المؤمنين، وليس هذا لمجرد كونه فاجراً بل لخصوص كونه زانياً، وكذلك في المرأة ليس لمجرد فجورها

---

(١) سورة النور: الآية ٣.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٤.

بل لخصوص زناها، بدليل أنه جعل المرأة زانية إذا تزوجت زانياً، كما جعل الزوج زانياً إذا تزوج زانية، هذا إذا كانا مسلمين يعتقدان تحريم الزنا، وإذا كانا مشركين فينبغي أن يعلم ذلك.

ومضمونه أن الرجل الزاني لا يجوز نكاحه حتى يتوب، وذلك بأن يوافق اشتراطه الإحصان، والمرأة إذا كانت زانية لا تحصن فرجها عن غير زوجها، بل يأتيها هو وغيره، كان الزوج زانياً هو وغيره يشتركون في وطئها، كما تشترك الزناة في وطء المرأة الواحدة، ولهذا يجب عليه نفي الولد الذي ليس منه"[(١)].

وقال – رحمه الله – بعد أن قرر أن الزانية لا تحل حتى تتوب: "والذين لم يعملوا بهذه الآية ذكروا لها تأويلاً ونسخاً، أما التأويل: فقالوا: المراد بالنكاح الوطء، وهذا مما يظهر فساده بأدنى تأمُّل.

أما أولاً: فليس في القرآن لفظ نكاح إلا ولا بد أن يراد به العقد وإن دخل فيه الوطء أيضا، فأما أن يراد به مجرد الوطء فهذا لا يوجد في كتاب الله قط.

وثانيها: أن سبب نزول الآية إنما هو استفتاء النبي ﷺ في التزوج بزانية فكيف يكون سبب النُّزول خارجاً من اللفظ.

الثالث: أن قول القائل: الزاني لا يطأ إلا زانية أو الزانية لا يطؤها إلا زان؛ كقوله: الآكل لا يأكل إلا مأكولاً والمأكول لا يأكله إلا آكل، والزوج لا يتزوج إلا بزوجة والزوجة لا يتزوجها إلا زوج؛ وهذا كلام يُنَزَّه عنه كلام الله.

---

(١) مجموع الفتاوى ٣١٧/١٥ – ٣١٩، وله – رحمه الله – كلام طويل في تقرير هذا المعنى ٣١٧ – ٣٢٨، بيِّن فيه أنه لا يجوز للمسلم أن يتزوج الزانية حتى تتوب.

الرابع: أن الزاني قد يستكره امرأة فيطؤها فيكون زانياً ولا تكون زانية وكذلك المرأة قد تزني بنائم ومكره على أحد القولين ولا يكون زانياً.

الخامس: أن تحريم الزنا قد علمه المسلمون بآيات نزلت بمكة، وتحريمه أشهر من أن تنَزل هذه الآية بتحريمه.

السادس: قال: ﴿لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ فلو أريد الوطء لم يكن حاجة إلى ذكر المشرك فإنه زان، وكذلك المشركة إذا زنى بها رجل فهي زانية فلا حاجة إلى التقسيم.

السابع: أنه قد قال قبل ذلك: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾[1] فأي حاجة إلى أن يذكر تحريم الزنا بعد. وأما النسخ فقال سعيد بن المسيِّب وطائفة: نسخها قوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾[2]... وقول من قال: هي منسوخة بقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ في غاية الضعف؛ فإن كونها زانية وصف عارض لها يوجب تحريماً عارضاً: مثل كونها محرمة ومعتدة ومنكوحة للغير؛ ونحو ذلك مما يوجب التحريم إلى غاية، ولو قدر أنها محرمة على التأبيد لكانت كالوثنية.

ومعلوم أن هذه الآية لم تتعرض للصفات التي بها تحرم المرأة مطلقاً أو مؤقتاً؛ وإنما أمر بإنكاح الأيامى من حيث الجملة؛ وهو أمر بإنكاحهن بالشروط التي بينها وكما أنها لا تنكح في العدة والإحرام لا تنكح حتى تتوب...".

---

(١) سورة النور: الآية ٢.

(٢) سورة النور: الآية ٣٢.

ثم قال: "فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾؟ قيل: المتزوج بها إن كان مسلماً فهو زان، وإن لم يكن مسلماً فهو كافر. فإن كان مؤمناً بما جاء به الرسول من تحريم هذا وفعله فهو زان؛ وإن لم يكن مؤمناً بما جاء به الرسول فهو مشرك كما كانوا عليه في الجاهلية كانوا يتزوجون البغايا. يقول: فإن تزوجتم بهن كما كنتم تفعلون من غير اعتقاد تحريم ذلك فأنتم مشركون، وإن اعتقدتم التحريم فأنتم زناة؛ لأن هذه تمكن من نفسها غير الزوج من وطئها فيبقى الزوج يطؤها كما يطؤها أولئك، وكل امرأة اشترك في وطئها رجلان فهي زانية؛ فإن الفروج لا تحتمل الاشتراك؛ بل لا تكون الزوجة إلا محصنة"(١).

الدراسة:

سبب نزول الآية استئذانُ بعض الصحابة رضي الله عنهم رسولَ الله ﷺ في نكاح نساء معروفات بالزِّنى من أهل الشرك، فأنزل الله تحريمَهنَّ على المؤمنين في هذه الآية، وقد وَرَدَ هذا عن جمع من السلف منهم: عبدالله بن عمرو، وابن عباس ﷺ، وابن المسيِّب، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح(٢)، والقاسم بن أبي

(١) مجموع الفتاوى ٣٢/١١٣ – ١١٧، وله كلام طويل في تقرير هذا المعنى ١١٣ – ١٢٦.

(٢) هو عطاء بن أبي رَبَاح أسلم القرشي مولاهم، المكي، ثقة فقيه فاضل لكنه كثير الإرسال، مات سنة أربع عشرة ومائة، وقيل إنه تغير بآخره. انظر: تقريب التهذيب ١/٦٧٤، شذرات الذهب ١/١٤٧.

بزَّة[١]، وسعيد بن جبير، والشعبي[٢] [٣].

وقد اختلف المفسرون في معنى هذه الآية على أقوال خمسة:

القول الأول: أن المراد بالنكاح في الآية عقد الزواج[٤]، وأن هذه الآية نزلت في قوم من فقراء المسلمين هُمُّوا بأن يتزوجوا بغايا كنَّ بالمدينة ليعنَّهم بما يأخذنه من الأجرة[٥]، ومعنى الآية على هذا: الزاني من المؤمنين لا يتزوج إلا زانية أو مشركة، لأنهن كذلك، والزانية من أولئك البغايا لا ينكحها إلا زان من المؤمنين أو المشركين، أو مشرك مثلها، فحرَّم الله نكاحَهنَّ بهذه الآية[٦].

ويدلُّ لهذا القول سبب النُّزول؛ فعن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- أنه قال عند هذه الآية: "كُنَّ نساءً معلوماتٍ فكان الرجلُ من فقراء المسلمين

---

(١) القاسم بن أبي بزّة نافع المكي، مولى بني مخزوم، القارئ، ثقة، مات سنة خمس عشرة ومائة، وقيل قبلها. انظر: التاريخ الكبير ١٦٧/٧، وتقريب التهذيب ١٨/٢.

(٢) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري، أبو عمرو، حافظة من الحفاظ، ولد سنة ١٩هـ، وتوفي سنة ١٠٣هـ بالكوفة. انظر: تاريخ بغداد ٢٢٧/١٢ ترجمة (٦٦٨٠)، وتهذيب التهذيب ٦٥/٥.

(٣) أخرجها عنهم ابن جرير ١٤٩/١٧ – ١٥٧ [ط التركي] وغيره، انظر: الدر المنثور ٣٨/٥ – ٤٠.

(٤) واختلف العلماء في جواز نكاح العفيف الزانيةَ، ونكاح العفيفة الزاني، فأجازه الجمهور، ومنعه آخرون إلا بعد التوبة، انظر: الأم للشافعي ١٨/٥ وما بعدها، والمغني ٥٦١/٩ – ٥٦٤، وتفسير القرطبي ١١٣/١٢، وكلام شيخ الإسلام في الموضع السابق، وزاد المعاد ١١٤/٥، وأضواء البيان ٧٢/٦ - ٨٢.

(٥) ونسبه الزجاج لأكثر أهل التفسير، انظر: معاني القرآن وإعرابه ٢٩/٤.

(٦) انظر: تفسير ابن جرير ١٤٩/١٧ [ط التركي].

يتزوج المرأة منهن لتنفق عليه، فنهاهم الله عن ذلك"[١].

وعن عمرو بن شعيب[٢] عن أبيه عن جده أن مَرْثَد بن أبي مرثد الغَنَوي كان يحمل الأسارى بمكة، وكان بمكة بغي يقال عناقُ، وكانت صديقته، قال: "جئت إلى النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله: أنْكح عناقَ؟ قال: فسكت عنِّي، فنزلت: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فدعاني فقرأها عليَّ، وقال: لا تنكحها"[٣].

وضَعَّف القولَ بأنها نزلت في أناس مخصوصين ابنُ القيم مبيناً أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[٤].

وضعَّف القولَ بأن المراد بالنكاح في الآية العقد جماعةٌ من المفسرين؛ لأن الله تعالى ذكر فيها المشرك والمشركة، وقد أجمع العلماء على أن الزاني المسلم لا يحلُّ له نكاح المشركة، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾[٥]،

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٥٠/١٧ [ط التركي]، والحاكم ٣٩٦/٢ وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) هو أبو إبراهيم، عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي القرشي، من رجال الحديث، كان يسكن مكة، وتوفي بالطائف سنة ١١٨هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٤٨/٨، والتقريب ص٤٢٣.

(٣) أخرجه أبو داود ٥٤٢/٢ ح٢٠٥١، كتاب النكاح، باب قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ وهذا لفظه، والترمذي ٣٠٧/٥ ح٣١٧٧، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة النور، والنسائي ٦٦/٦ ح٣٢٢٨، كتاب النكاح، باب تزويج الزانية، وابن جرير ١٥١/١٧ ط التركي، وابن أبي حاتم كما في الدر ٣٩/٥، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ٣٨٦/٢.

(٤) إغاثة اللهفان ٧٢/١.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٢١.

وكذلك الزانية المسلمة لا يحل لها نكاح المشرك، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾، فنكاح المشركة والمشرك لا يحل بحال، فدلَّ ذلك على أن المراد بالنكاح في الآية الوطء وليس العقد(١).

وقد اختار القول بأن المراد بالنكاح العقد شيخ الإسلام كما تقدم، وابن القيم، ووجَّه الآية بقوله: "وجهها – والله أعلم – أن المتزوج أُمر أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أُبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط كما ذكر ذلك سبحانه في سورتي النساء والمائدة، والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه، والإباحة قد علقت على شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به، فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرعه على لسان رسوله، أو لا يلتزمه، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله، وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه لم يصح النكاح فيكون زانياً، فظهر معنى قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ وتبين غاية البيان، وكذلك حكم المرأة، وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة، ومقتضى العقل..."(٢).

القول الثاني: أن المراد بالنكاح في الآية الوطء، والمعنى: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة، والزانية لا يزني بها إلا زان أو مشرك، وبه قال ابن عباس

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٦٠/١٧ ط التركي، وابن عطية ٢٦٧/١١، والشنقيطي ٧٢/٦.
(٢) إغاثة اللهفان ٧٣/١.

- رضي الله عنهما -[١] وسعيد بن جبير، وعكرمة[٢]، ومجاهد، وابن زيد[٣] [٤].

قال يزيد بن هارون[٥]: "إن جامعها وهو مستحلٌّ فهو مشرك، وإن جامعها وهو مُحَرِّمٌ فهو زان"[٦].

قال ابن كثير: "هذا خبر من الله – تعالى – بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة، أي: لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك، وكذلك ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾ أي: عاص بزناه، أو مشرك لا يعتقد بتحريمه"[٧].

وقال أبوحيان: "والظاهر أنه خبر قُصد به تشنيع الزنا وأمره، فالمعنى: أن الزاني في وقت زناه لا يجامع إلا زانية من المسلمين، أو أخس منها وهي

---

(١) أخرجه عبدالرزاق ٥١/٢، وابن جرير ١٥٧/١٧ - ١٥٩ ط التركي، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٥٣٩/٢، وعزاه في الدر ٣٩/٥ أيضاً لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، وصحح إسناده ابن كثير في تفسيره ٢٧٣/٣.

(٢) هو عكرمة بن عبد الله البربري المدني، أبو عبد الله، مولى ابن عباس، تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي، أخرج له البخاري في الصحيح، توفي سنة ١٠٥هـ. انظر: ميزان الاعتدال ٩٣/٣، وتهذيب التهذيب ٢٦٣/٧.

(٣) هو أبو الشعثاء، جابر بن زيد الأزدي ثم الجَوْفي البصري، مشهور بكنيته، ثقة فقيه، توفي سنة ثلاث وتسعين، وقيل: ثلاث ومائة. انظر: التاريخ الكبير ٢٠٤/٢، وتقريب التهذيب ص١٣٦.

(٤) أخرجه عنهم ابن جرير ١٥٧/١٧ – ١٥٩ [ط التركي]، وانظر: الدر ٣٩/٥.

(٥) هو يزيد بن هارون بن زاذان بن ثابت السلمي بالولاء الواسطي، أبو خالد، من حفاظ الحديث الثقات، ولد بواسط سن ١١٨هـ، وتوفي بها سنة ٢٠٦هـ. انظر: تاريخ بغداد ٣٣٧/١٤ ترجمة رقم (٧٦٦١)، وتهذيب التهذيب ٣٦٦/١١.

(٦) ذكره عنه البغوي في تفسيره ٣٢٢/٣.

(٧) تفسيره ٢٧٣/٣.

المشركة، والنكاح بمعنى الجماع"[١].

ورجّح هذا القول ابن جرير، وقال: "وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال عُني بالنكاح في هذا الموضع الوطء، وأن الآية نزلت في البغايا المشركات ذوات الرايات؛ وذلك لقيام الحجة على أن الزانية من المسلمات حرام على كل مشرك، وأن الزاني من المسلمين حرام عليه كل مشركة من عبدة الأوثان، فمعلوم إذا كان ذلك كذلك أنه لم يُعنَ بالآية أن الزاني من المؤمنين لا يعقد عقد نكاح على عفيفة من المسلمات ولا ينكح إلا بزانية أو مشركة، وإذ كان ذلك كذلك فبين أن معنى الآية الزاني لا يزني إلا بزانية لا تستحل الزنى أو بمشركة تسْتحِلُّهُ"[٢].

وترجيحه بسبب النُّزول لا يوافق عليه؛ فإن سبب النُّزول صريح في الدلالة على القول الأول.

واختار بأن المراد به الوطء ابن جزي[٣]، وابن كثير كما تقدم، وأبو حيان[٤]، والشنقيطي[٥].

وقد ضعّف هذا القول الزجاج؛ لأن النكاح لم يطلق في القرآن إلا على التزويج، ولو كان المراد به الوطء لما كان في الكلام فائدة، لأن القائل إذا قال:

---

(١) تفسيره ٣٩٥/٦ باختصار، وانظر: الألوسي ٨٤/١٨.
(٢) تفسيره ١٦٠/١٧ [ط التركي]، وانظر: الكشاف ٦١/٣.
(٣) تفسيره ٨٢/٢.
(٤) تفسيره ٣٩٥/٦.
(٥) تفسيره أضواء البيان ٧٦/٦.

الزانية لا تزني إلا بزان، والزاني لا يزني إلا بزانية؛ لم يكن في كلامه فائـــدة إلا على جهة التغليظ في الأمر[١].

وتعقّبه ابن عطية بأنه ورد إطلاق النكاح على الوطء في القرآن، كمـــا في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾[٢]، وقد بينه النبي ﷺ بأنه الوطء[٣].

وضعّف هذا القول شيخ الإسلام من وجوه تقدم ذكرها.

القول الثالث: أن هذه الآية منسوخة بقولـــه تعـــالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[٤]، حيث أحلَّ الله تعالى في هذه الآية نكاح كل مسلمة، وإنكاح كل مسلم[٥].

قال ابن المسيِّب: "نَسَخَتْها التي بعدها ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾"، وقـــال: "إنهن من أيامى المسلمين"[٦].

واختاره الإمام الشافعي، وقال بعد أن أورد هذا الأثر: "فوجدنا الدلالة عن

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه ٣٠٢٩/٤، وبمثله قال الزمخشري ٦١/٣، وابن القيم في إغاثة اللهفان ٧٢/١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٠.

(٣) تفسيره ٢٦٧/١١.

(٤) سورة النور: الآية ٣٢.

(٥) انظر: تفسير ابن جرير ١٥٩/١٧ ط التركي، والأيامى: جمع أيِّم، وهو من لا زوج له من الرجال والنساء، يوصف به الذكر والأنثى. انظر: المرجع السابق ٢٧٤/١٧.

(٦) أخرجه الشافعي في الأم ١٨/٥، وعبد الرزاق ١٥/٢، وابن جرير ١٥٩/١٧ – ١٦٠ ط التركي من خمس طرق، وابن أبي حاتم كما في الدر ٤١/٥، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٥٣٨/٢، وغيرهـــم، انظر: الدر ٤١/٥.

رسول الله ﷺ لم نعلمه حرَّم على واحد منهما أن ينكح غير زانية، ولا زان، ولا حرَّم واحداً منهما على زوجه..."[١]. واختاره أيضاً النحاس[٢].

وضعَّف هذا القولَ جمع من المفسرين، منهم ابن العربي، وبيّن أنه تخصيص لعام وبيان لمجمل وليس بنسخ[٣]، وابن عطية، حيث ضعَّفه بذكر الإشراك[٤]، وابن القيم، وبين أنه لا تعارض بين الآيتين[٥].

فالآية محكمة؛ لأنها على القول بأن المراد بالنكاح الوطء لا تعارض بين الآيتين، فهذه الآية في الوطء وتلك ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ في العقد، وعلى تفسير النكاح هنا بالعقد تكون هذه الآية مخصصة لتلك[٦]، وقد مضى القول بأن النسخ لا يلجأ إليه إلا عند تعذّر الجمع، مع قيام الدليل على ذلك.

القول الرابع: أن المراد بالآية: أن الزاني المَحْدودَ والزانية المحدودة لا يتزوجان إلا بأمثالهما، واستدلوا بحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا ينكح الزاني المجلودُ إلا مثله"[٧]، وبه قال الحسن[٨].

---

(١) الأم ١٢/٥، وانظر: ص ١٤٨.

(٢) انظر: الناسخ والمنسوخ له ٥٣٧/٢، ٥٤٣، وإعراب القرآن ١٢٨/٣، ومعاني القرآن ٤٩٩/٤، وقيل إنها منسوخة بالإجماع، وهو ضعيف. انظر: تفسير الرازي ١٥٢/٢٣.

(٣) انظر: الناسخ والمنسوخ له ٣١١/٢، وأحكام القرآن ١٣٣١/٣.

(٤) تفسيره ٢٩٩/١١.

(٥) إغاثة اللهفان ٧٢/١.

(٦) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس ٤٤٣/٢ ح٢، والنسخ في القرآن الكريم ٧٩٧/٢.

(٧) أخرجه أبو داود ٥٤٣/٢ ح٢٠٥٢، كتاب النكاح، باب قوله الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾، والحاكم ١٩٣/٢، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي ١٥٦/٧، وعزاه في الدر ٤٠/٥ لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن مردويه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ٣٨٦/٢.

(٨) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٥٤٠/٢.

قال النحاس: "هذا الحديث يجوز أن يكون منسوخاً كما نسخت الآيــة في قول سعيد بن المسيب"[١].

وضعّف هذا القول، وهذا الحديث جمع من المفسرين منهم ابــن العــربي، حيث قال: "وهذا معنى لا يصح نظراً، كما لم يثبت نقلاً..."[٢].

وقال ابن عطية: "وهذا حديث لا يصح، وقول فيه نظر، وإدخال المشرك في الآية يردُّه، وألفاظ الآية تأباه، وإن قدَّرت المشركة بالكتابية، فلا حيلة في لفظ المشرك"[٣].

القول الخامس: أن هذا الحكم مؤسس على الغالب، والمعنى أن غالب الزناة لا يرغب إلا في الزواج بزانية مثله، وغالب الزواني لا يرغبن إلا في الزواج بزان مثلهن، والمقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عــن الزنــا[٤]، ورجحه الشوكاني[٥].

ويناقش بالمنع، بل الزاني لا يرغب في الزانية، ويخشى من خيانتها[٦].

وهذه الأقوال الثلاثة ضعيفة كما ترى، وأمّا القولان الأوليان فهما قويان، لكنْ يرد على كل واحد منهما اعتراض ظاهر كما مرَّ، ولذلك لم يتــرجح لي واحد منهما، والله أعلم.

---

(١) الناسخ والمنسوخ ٥٤٢/٢.
(٢) أحكام القرآن ٥٤٢/٢.
(٣) تفسيره ٢٦٩/١١.
(٤) انظر: تفسير الرازي ١٥١/٢٣، والشوكاني ٨/٤، والألوسي ٨٤/١٨.
(٥) تفسيره ٨/٤.
(٦) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ١٣٣١/٣.

سورة الفرقان: الآية ٧٢

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن معنى الزور في الآية الشيء المحسَّن المموه فيعم ما ذكره المفسرون فيها من الأقوال التي تدخل تحت هذا المعنى العام.

قال رحمه الله عند هذه الآية: "فروى أبو بكر الخلال[٢] في الجامع بإسناده عن محمد بن سيرين[٣] في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ قال: هو الشعانين[٤]. وكذلك ذكر عن مجاهد قال: هو أعياد المشركين. وكذلك عن الربيع بن أنس[٥] قال: هو أعياد المشركين. وفي معنى هذا ما روي عن عكرمة

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٢.

(٢) هو أحمد بن محمد بن هارون الحنبلي، مفسر عالم بالحديث واللغة، من مؤلفاته: تفسير الغريب، والسنة، توفي سنة ٣١١هـ، قال الذهبي: "جامعُ علم أحمد ومرتّبه". انظر: البداية والنهاية ١٤٨/١١، والأعلام ٢٠٦/١.

(٣) هو محمد بن سيرين البصري الأنصاري بالولاء، أبو بكر، إمام وقته في علوم الدين، تابعي جليل، ولد في البصرية سنة ٣٣هـ، وتوفي بها سنة ١١٠هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٢١٤/٩، والتقريب ص٤٨٣.

(٤) الشَّعانين: عيد للنصارى يقيمونه يوم الأحد السابق لعيد الفصح، ويزعمون أن ذلك ذكرى لدخول المسيح بيت المقدس. انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ٤٧٨/١، والمعجم الوسيط ٤٨٥/١.

(٥) هو الربيع بن أنس بو زياد البكري الخراساني المروزي، عالم مرو في زمانه، سمع من أنس بن مالك ﷺ، توفي سنة ١٣٩هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٦٩/٦، وتهذيب التهذيب ٢٣٨/٣.

قال: لعب كان لهم في الجاهلية. وقال القاضي أبو يعلى[١]: مسألة في النهي عن حضور أعياد المشركين:

روى أبو الشيخ الأصبهاني[٢] بإسناده في شروط أهل الذمة عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ قال: عيد المشركين.

وبإسناده عن أبي سنان[٣] عن الضحاك: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ قال: أعياد المشركين. وروى بإسناده عن عمرو بن مرة[٤]: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ لا يمالئون أهل الشرك على شركهم ولا يخالطونهم... وقول هؤلاء التابعين: إنه أعياد الكفار ليس مخالفاً لقول بعضهم: إنه الشرك، أو صنم كان في الجاهلية، ولقول بعضهم: إنه مجلس الخنا، وقول بعضهم: إنه الغناء؛ لأن عادة السلف في تفسيرهم هكذا؛ يذكر الرجل نوعاً من أنواع المسمى لحاجة المستمع

---

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء، أبو يعلى، عالم عصره في الأصول والفروع، ولد سنة ٣٨٠هـ، وتوفي سنة ٤٥٨هـ، من مؤلفاته: الأحكام السلطانية، وكتاب الإيمان، وكان شيخ الحنابلة. انظر: تاريخ بغداد ٢٥٦/٢ ترجمة رقم (٧٣٠)، وشذرات الذهب ٣٠٦/٣.

(٢) هو عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، المعروف بأبي الشيخ، محدث، مفسر، من تصانيفه: التفسير، وكتاب العظمة، توفي عام ٣٦٩هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٧٦/١٦، ومعجم المؤلفين ١١٤/٦.

(٣) هو أبو سنان، سعيد بن سنان البُرجُمي الشيباني، شيخ كوفي سكن الري، وكان يحج كل عام. انظر: سير أعلام النبلاء ٤٠٦/٦، وتهذيب التهذيب ٤٥/٤.

(٤) هو عمرو بن مرة بن عبد الله بن طارق بن الحارث بن سلمة، أبو عبد الله المرادي، الإمام القدوة الحافظ، أحد الأئمة الأعلام، توفي سنة ١١٦هـ، وقيل سنة ١١٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٩٦/٥، وتهذيب التهذيب ١٠٢/٨.

إليه، أو لينبه به على الجنس... لكن قد قال قوم: إن المراد: شهادة الزور وهذا فيه نظر فإنه تعالى قال: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ و لم يقل: يشهدون بالزور.

والعرب تقول شهدت كذا إذا حضرته...، وأما شهدت بكذا فمعناه: أخبرت به.

ووجه تفسير التابعِين المذكورِين أن الزور هو المحسَّن المموَّه حتى يظهر بخلاف ما هو عليه في الحقيقة... فالشاهد بالزور يظهر كلاماً يخالف الباطن، ولهذا فسره السلف تارة بما يظهر حسنه لشبهة، أو لشهوة، وهو قبيح في الباطن. فالشرك ونحوه: يظهر حسنه للشبهة، والغناء ونحوه يظهر حسنه للشهوة"[1].

الدراسة:

اختلفت عباراتُ المفسرين في بيان المراد بالزور في الآية وإليك أقوالهم:

القول الأول: أنه صنم كان لقريش؛ وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -.

القول الثاني: أنه الغناء؛ قاله مجاهد، ومحمد بن الحنفية[2]،

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/٤٢٧.

(٢) هو أبو عبد الله وأبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب القرشي، ثقة أخرج له أصحاب الكتب الستة، أمه خولة بنت جعفر الحنفية، فنسب إليها، ولد بالمدينة سنة ٢١هـ، وتوفي بها سنة ٨١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/١١٠، والتقريب ص٤٩٧ رقم (٦١٥٧).

ومكحول[١]. وقال الحسن: "الغناء والنياحة".

القول الثالث: أنه الشرك؛ قاله الضحاك، وابن زيد.

القول الرابع: أنه لعب كان لهم في الجاهلية؛ قاله عكرمة.

القول الخامس: أنه الكذب؛ قاله قتادة، وابن جريج.

القول السادس: أنه أعياد المشركين؛ قاله الربيع بن أنس، وأبو العالية، وطاووس[٢]، والمثنى بن الصباح[٣]، وقال ابن سيرين: "هو الشعانين".

القول السابع: أنه مجالس السوء؛ قاله عمرو بن قيس[٤].

القول الثامن: أنه مجلس كان يشتم فيه النبي ﷺ؛ قاله خالد بن كثير[٥].

---

(١) هو الحافظ مكحول بن أبي مسلم، أبو عبد الله، الهذلي بالولاء، عالم أهل الشام، توفي بدمشق سنة بضع عشرة ومائة، ويقال له: مكحول الشامي. انظر: تهذيب التهذيب ٢٨٩/١٠، والتقريب ص٥٤٥ رقم (٦٨٧٥).

(٢) هو طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني بالولاء، أبو عبد الرحمن، ولد باليمن سنة ٣٣هـ، وتوفي حاجاً بمكة سنة ١٠٦هـ، من أكابر التابعين، كان فقيهاً في الدين راوية للحديث. انظر: حلية الأولياء ٣/٤، وتهذيب التهذيب ٨/٥.

(٣) هو المثنى بن الصبَّاح اليماني ثم المكي، الأبناوي، من رجال الحديث المكثرين، توفي بمكة سنة ١٤٩هـ، طال عمره واختلط فعُدّ من الضعفاء. انظر: تهذيب التهذيب ٣٥/١٠، وشذرات الذهب ٢٢٥/١.

(٤) هو عمرو بن قيس بن ثور بن مازن بن خيثمة السكوني الكندي، أبو ثور، تابعي ثقة، كان سيد أهل حمص، ولد سنة ٤٠هـ، وتوفي سنة ١٤٠هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٩١/٨، والتقريب ص٤٢٦.

(٥) هو خالد بن كثير الهمداني الكوفي، ليس به بأس، وأخطأ من قال له صحبة. انظر: الثقات ٢٦٠/٦، وتقريب التهذيب ص١٩٠.

القول التاسع: أنه شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه؛ قاله الزهري[١].

القول العاشر: وقال عمرو بن مرة: "﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ لا يمالئون أهل الشرك على شركهم ولا يخالطوهم"، وروي عن قتادة نحوه.

القول الحادي عشر: أنه شهادة الزور؛ قاله علي بن أبي طلحة[٢] [٣].

وعند التأمل في هذه الأقوال نجد أنه ليس بينها تناقض، بل هي أنواع متعددة تدخل تحت جنس الزور، ولذلك ذهب جمع من المفسرين إلى أن كل هذه الأقوال المذكورة داخلة في معنى الزور.

قال ابن جرير: "وأصل الزور تحسين الشيء، ووصفه بخلا ف صفته، حتى يخيَّل إلى من يسمعه أو يراه أنه خلاف ما هو به... فإذا كان كذلك؛ فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدون شيئاً من الباطل، لا شركاً ولا غناء ولا كذباً ولا غيره، وكل ما لزمه اسم الزور؛ لأن الله عمّ في

---

(١) هو الإمام الحافظ، محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، أبو بكر، أول من دون الحديث، عالم الحجاز والشام، ولد سنة ٥٨هـ، وتوفي سنة ١٢٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٢٦/٥، وتهذيب التهذيب ٤٤٥/٩.

(٢) هو علي بن أبي طلحة واسمه سالم بن المخارق الهاشمي، يكنى أبا الحسن، روى عن ابن عباس و لم يسمع منه، توفي سنة ١٤٣هـ، له صحيفة مشهورة يرويها عن ابن عباس. انظر: تاريخ بغداد ٤٢٨/١١، وتهذيب التهذيب ٣٣٩/٧.

(٣) ذكر هذه الأقوال عن السلف ابن جرير ٤٢٠/٩، وابن أبي حاتم ٢٧٣٧/٨، والماوردي ١٥٩/٤، والواحدي في الوسيط ٣٤٨/٣، وابن الجوزي ٢٧/٦، وابن كثير ٣٤١/٣.

وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يُخصّ من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل"[١].

وقال الرازي بعد أن ذكر الأقوال في معنى الزور: "واعلم أن كل هذه الوجوه محتملَة ولكن استعماله في معنى الكذب أكثر"[٢].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي عند هذه الآية: "أي: لا يحضرون الزور، أي: القول والفعل المحرم... وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن باب أولى وأحرى ألا يقولوه ويفعلوه، وشهادة الزور داخلة في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولوية"[٣].

وقال ابن عاشور بعد أن ذكر بعض الأقوال في معنى الآية: "ويجوز أن يكون فعل ﴿لَا يَشْهَدُونَ﴾ بمعنى الإخبار عما علموه ويكون ﴿الزُّورَ﴾ منصوباً على نزع الخافض، أي: لا يشهدون بالزور، أو مفعولاً مطلقاً لبيان نوع الشهادة أي لا يشهدون شهادةً هي زورٌ لا حقّ"[٤].

كما اختار الإمام البخاري في صحيحه أن شهادةَ الزور داخلةٌ فيما نهت عنه الآية[٥].

---

(١) تفسير ابن جرير ٩/٤٢١.
(٢) تفسير الرازي ٢٤/٩٩.
(٣) تفسير السعدي ص٥٨٧.
(٤) تفسير ابن عاشور ١٩/٧٨.
(٥) صحيح البخاري ٥/٣٢٢، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور.

وأمّا شيخ الإسلام ابن تيمية فيرى أن جميع الأقوال المذكورة داخلة في معنى الزور إلا القول الأخير وهو: أن المراد شهادة الزور، وتبعه في ذلك ابنُ القيم[١]، وتقدم تعليل شيخ الإسلام لذلك، وهو أن الله تعالى قال: يشهد الزور بمعنى يحضرون، ولو أراد شهادة الزور لقال: يشهدون بالزور بمعنى يخبرون به.

والراجح – والله تعالى أعلم – أن الآية تشمل جميع ما ذكر فيها مما هو داخل تحت اسم الزور، حتى شهادة الزور كما ذهب إليه من تقدم ذكرهم من المفسرين.

وتوجه الآية على هذا المعنى التوجيه التالي: لا يشهدون شهادة الزور، فحُذِف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وقد أجاز هذا الوجه جماعةٌ من المفسرين[٢].

(١) إغاثة اللهفان ١/٢٤٥.

(٢) انظر: تفسير الزمخشري ٣/١٠٥، والرازي ٢٤/٩٨، وأبي حيان ٦/٥١٦، والألوسي ١٩/٥١.

سورة الفرقان: الآية ٧٧

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾[(١)].

رجح شيخ الإسلام أن المصدر في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ مضاف إلى فاعله، وأن المعنى: لولا دعاؤه إياكم.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "قيل: لولا دعاؤكم إياه، وقيل: لولا دعاؤكم إياكم، فإن المصدر يضاف إلى الفاعل تارة وإلى المفعول تارة، ولكن إضافته إلى الفاعل أقوى؛ لأنه لا بد له من فاعل فلهذا كان هذا أقوى القولين، أي: ما يعبأ بكم لولا أنكم تدعونه فتعبدونه وتسألونه"[(٢)].

الدراسة:

معنى قوله تعالى: ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ﴾ أي شيء يصنع بكم[(٣)].

واختلف المفسرون في المصدر في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ هل هو مضاف إلى فاعله، أو إلى مفعوله:

فذهب بعضهم إلى أنه مضاف إلى فاعله، والمعنى: لولا أنكم تدعونه

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٧.

(٢) الفتاوى الكبرى ٢/٢٤٠، وانظر: مجموع الفتاوى ١٥/١٢ و٢٧/٤٣٣.

(٣) تفسير ابن جرير ٩/٤٢٦.

وتعبدونه[١]، وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما –[٢]، واختاره شيخ الإسلام كما تقدم، وأبو حيان[٣]، وابن القيم[٤]، والألوسي[٥]، ومن أدلة هذا القول قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[٦][٧].

القول الثاني: أن المصدر مضاف إلى مفعوله، والمعنى: لولا دعاؤه إياكم إلى توحيده، وعبادته على ألسنة رسله[٨]، وروي عن مجاهد[٩]، واختاره الفراء[١٠]، وابن عاشور[١١].

ومن أدلة هذا القول قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[١٢][١٣].

---

(١) اختار شيخ الإسلام ابن تيمية أن الدعاء هنا يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة، انظر المصادر السابقة له.

(٢) تفسير ابن جرير ٤٢٧/٩، وابن أبي حاتم ٢٧٤٥/٨، وانظر تفسير ابن الجوزي ٢٩/٦.

(٣) تفسير أبي حيان ٥١٧/٦.

(٤) بدائع الفوائد ٣٠٤/٣.

(٥) تفسير الألوسي ٥٤/١٩.

(٦) سورة العنكبوت: الآية ٦٥.

(٧) انظر: تفسير الشنقيطي ٣٦١/٦.

(٨) تفسير الشنقيطي ٣٥٩/٦.

(٩) تفسير ابن جرير ٤٢٧/٩، وابن أبي حاتم ٢٧٤٥/٨.

(١٠) معاني القرآن للفراء ص ٢٧٥.

(١١) تفسير ابن عاشور ٨٦/١٩.

(١٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(١٣) انظر: تفسير القرطبي ٥٧/١٣، والشنقيطي ٣٦١/٦.

والراجح – والله تعالى أعلم – القول الأول؛ لأن معناه أظهر.

هذا ويرى بعض الباحثين أنه لا مانع من حمل الآية على المعنيين؛ لأنـــه لا مانع من إرادتهما جميعاً[١].

(١) قواعد التفسير ٢/٨١٠.

سورة الشعراء: الآية ٢٣

قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [١].

رجح شيخ الإسلام أن سؤال فرعون إنما كان سؤالَ جحود وإنكار، وليس سؤالاً عن ماهية الربِّ - جل وعلا -.

قال - رحمه الله - عند هذه الآية: "وقد ظن بعض الناس أن سؤال فرعون وما رب العالمين هو سؤالٌ عن ماهية الرب، كالذي يسأل عن حدود الأشـــياء فيقول: ما الإنسان؟ ما الملك؟ ما الجني؟ ونحو ذلك.

قالوا: ولما لم يكن للمسئول عنه ماهية عدل موسى عن الجواب إلى بيان ما يعرف به وهو قوله: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [٢] وهذا قول قاله بعض المتأخرين، وهو باطل؛ فإن فرعون إنما استفهم استفهام إنكار وجحد لم يسأل عن ماهية ربٍّ أقر بثبوته؛ بل كان منكراً له جاحداً؛ ولهذا قال في تمام الكلام: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [٣] وقال: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ [٤]، فاستفهامه كان إنكاراً وجحداً يقول: ليس للعالمين رب يرسلك فمن هو هذا؟ إنكاراً له. فبيَّن موسى أنه معروف عنده وعند الحاضرين وأن آياته ظاهرة بينة لا يمكن معها جحده، وأنكم إنما تجحدون بألسنتكم ما

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٣.
(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٤.
(٣) سورة الشعراء: الآية ٢٩.
(٤) سورة غافر: الآية ٣٧.

تعرفونه بقلوبكم، كما قال موسى في موضع آخر: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[(١)]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[(٢)].

ولم يقل فرعون: (ومَن رب العالمين) فإن (مَن) سؤال عن عينه، يسأل بها من عرف جنس المسؤول عنه أنه من أهل العلم وقد شك في عينه، كما يقول لرسول عرف أنه جاء من عند إنسان: من أرسلك؟ وأما (ما) فهي سؤال عن الوصف. يقول: أي شيء هو هذا؟ وما هو هذا الذي أسميتَه ربَ العالمين؟ قال ذلك منكراً له جاحداً"[(٣)].

الدراسة:

اختلف المفسرون في سؤال فرعون:

القول الأول: أنه سؤالُ جحد وإنكار للرب - تعالى -، واختاره السمرقندي[(٤)]، وشيخ الإسلام كما تقدم،وأبو حيان[(٥)]،

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٠٢.

(٢) سورة النمل: الآية ١٤.

(٣) بيان تلبيس الجهمية ٥٢٤/١، وانظر: مجموع الفتاوى ٣٣٣/١٦، ودرء التعارض ٣٩/٨، ٤٤٠/٨، ٤٢/٩، ٢٧٢/١٠، والصفدية ٢٤٢/١.

(٤) تفسيره ٤٧٢/٢.

(٥) تفسيره ١٢/٧.

وأبو السعود[١] [٢]، والسعدي[٣]، والشنقيطي[٤]، وغيرهم، واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

١ - أن فرعون كان منكراً لوجود الله - تعالى - كما دلت الآيات الكثيرة في القرآن، ومنها قوله تعالى حكاية عنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [٥]، وقال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [٦]، وقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [٧].

والسؤال عن ماهية الشيء إنما يكون بعد الإقرار بوجوده، وتقدم بيان ذلك في كلام شيخ الإسلام.

قال الزمخشري: "والذي يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام أن يكون سؤاله هذا إنكاراً أن يكون للعالمين ربٌ سواه لادعائه الإلهية"[٨].

وقال ابن كثير: "ومن زعم مِن أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤالٌ عن

---

(١) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، فقيه، أصولي، مفسر، ولي القضاء في القسطنطينية وغيرها، ثم تولى الإفتاء، من مصنفاته: تفسيره: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، وتمافت الأمجاد في الفقه الحنفي، توفي عام ٩٨٢هـ في القسطنطينية. انظر: الأعلام ٥٩/٧، ومعجم المؤلفين ٣٠١/١١.

(٢) تفسيره ٢٣٩/٦.

(٣) تفسيره ص٥٩٠.

(٤) تفسيره ٣٧٤/٦.

(٥) سورة القصص: الآية ٣٨.

(٦) سورة النازعات: الآية ٢٤.

(٧) سورة الشعراء: الآية ٢٩.

(٨) تفسير الزمخشري ١١١/٣.

الماهية فقد غلط؛ فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر"[١].

٢ – أن فرعون عارف بربوبية الله – تعالى –، ولكنه أنكر ذلك تكبراً وجحوداً[٢] كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[٣] وقال الله – تعالى –: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٤].

٣ – ما أشار إليه شيخ الإسلام من أن فرعون استفهم بـ(ما) فقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فدل على أنه منكر للرب – تعالى –، ولو أراد السؤال عن تعيين شيء يقرُّ بوجوده لاستفهم بـ(مَن) فقال: (ومن رب العالمين)[٥].

القول الثاني: أنه سؤال عن ماهية[٦] الربِّ – تعالى – واختاره

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٤٥.

(٢) انظر: تفسير الشنقيطي ٦/٤٧٣، ٤/٤٥١.

(٣) سورة الإسراء: الآية ١٠٢.

(٤) سورة النمل: الآية ١٤.

(٥) وانظر: مجموع الفتاوى ١٦/٥٩٧، والدر المصون ٥/٢٧١.

(٦) الماهية مصطلح منطقي، قال الجرجاني: "الأظهر أنه نسبة إلى (ما هو) جعلت الكلمتان ككلمة واحدة". التعريفات ص ١٩٥، وقال الكفوي: "مقول في جواب (ما هو) بمعنى: أي جنس". الكليات ص٧٥٢.

البغوي[١]، وابن عطية[٢]، وابن الجوزي[٣]، والرازي[٤]، والقرطبي[٥]، والبيضاوي[٦]، وابن عاشور[٧]، وغيرهم. واستدلوا بأن (ما) سؤال عن الماهية، أو عن الجنس[٨]، ويناقش بأنه غير مسلم، وتقدم بيانُ ذلك.

والراجح – والله تعالى أعلم – القول الأول، لقوة أدلته.

---

(١) تفسيره ٣٨٤/٣.

(٢) تفسيره ٥٦/١٢.

(٣) تفسيره ٣٥/٦.

(٤) تفسيره ١١١/٢٤.

(٥) تفسيره ٦٧/١٣.

(٦) تفسيره ١٥٣/٢.

(٧) تفسيره ١١٦/١٩.

(٨) انظر: تفسير ابن عطية ٥٧/١٢، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ٥١/٤، وابن عاشور ١١٦/١٩.

سورة النمل: الآية ١٦

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بالإرث بالآية إرثُ النبوَّة والعلم ونحو ذلك، لا إرثَ المال.

قال – رحمه الله –: "المراد بهذا الإرث إرثُ العلم والنبوة ونحو ذلك، لا إرثَ المال؛ وذلك لأنه قال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ ومعلوم أن داود كان له أولاد كثيرون غير سليمان، فلا يختص سليمان بماله.

وأيضاً فليس في كونه ورث ماله صفة مدح لا لداود ولا لسليمان، فإن اليهودي والنصراني يرث أباه ماله، والآية سيقت في بيان المدح لسليمان وما خصه الله به من النعمة.

وأيضاً فإرث المال هو من الأمور العادية المشتركة بين الناس كالأكل والشرب ودفن الميت، ومثل هذا لا يقص على الأنبياء؛ إذ لا فائدة فيه، وإنما يقص ما فيه عبرة وفائدة تستفاد، وإلا فقول القائل: مات فلان وورث ابنه ماله، مثل قوله: ودفنوه، ومثل قوله: أكلوا وشربوا وناموا ونحو ذلك، مما لا يحسن أن يجعل من قصص القرآن"[٢].

---

(١) سورة النمل: الآية ١٦.

(٢) منهاج السنة النبوية ٤/٢٢٤.

الدراسة:

ذهب عامة المفسرين، إلى أن الوراثة المذكورة في الآية: وراثة العلم والدين والنبوة والملك، وليست وراثة المال.

قال قتادة: "ورثه نبوته، وملكه، وعلمه"(١).

وقال الربيع بن أنس: "ورثه أن سخر له الشياطين والرياح"(٢).

وقال الضحاك: "إن داوود استخلفه في حياته على بني إسرائيل، وكانت ولايتهُ هي الوراثة"(٣).

وقال ابن جرير: "العلم والملك"(٤).

وقال السمرقندي: "ورثه ملكه"(٥).

وقال الواحدي: "نبوته وعلمه وملكه"(٦).

وقال البغوي: "نبوته، وعلمه، وملكه، دون سائر أولاده"(٧).

وقال ابن عطية: "ورث سليمان ملكه ومنْزلته من النبوة، بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه"(٨).

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢٨٥٤/٩.
(٢) المرجع السابق.
(٣) تفسير الماوردي ١٩٨/٤.
(٤) تفسيره ٥٠٢/٩.
(٥) تفسيره ٤٩١/٢.
(٦) تفسيره ٣٧٠/٣.
(٧) تفسيره ٤٠٨/٣.
(٨) تفسيره ٩٨/١٢.

وقال أبو حيان: "الملك والنبوة... وقيل: ولاه على بني إسرائيل في حياته من بين سائر أولاده...، وقيل الملك والسياسة، وقيل النبوة فقط، والأظهر الأول"(١).

وقال ابن كثير: "الملك والنبوة"(٢).

وُروي عن الحسن أنه قال: "ورث المال والملك، لا النبوة والعلم؛ لأن النبوة والعلم من فضل الله، لا يكون بالميراث"(٣).

وهذا القول إن صح عن الحسن(٤) فهو ضعيف لوجوه:

١ – أنه مخالف لتفسير السلف، وعامة العلماء؛ فهو شاذ غير مقبول.

٢ – ما ثبت في السنة من أن الأنبياء لا يورث عنهم المال(٥)، ومن ذلك حديث عائشة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ قال: "لا نورَث ما تركنا صدقة"(٦).

٣ – أن سياق الآيات يدل على خلافه؛ فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ يدل على النبوة، وقوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾ يدل على الملك(٧). وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ يدل على أن المال غير

---

(١) تفسيره ٥٧/٧.

(٢) تفسيره ٣٧٠/٣.

(٣) تفسير السمرقدي ٤٩١/٢، وانظر تفسير أبي حيان ٥٧/٧.

(٤) لم أقف له على سند، وقد قال الألوسي في تفسيره ١٧١/١٩: "والظاهر أن الرواية عن الحسن غير ثابتة".

(٥) تفسير ابن كثير ٣٧٠/٣.

(٦) تقدم تخريجه ص ١١٣، وانظر: تفسير الشنقيطي ٢٢٧/٤.

(٧) انظر: تفسير أبي حيان ٥٧/٧، والألوسي ١٧١/١٩.

داخل في الميراث المذكور في الآية؛ لأنه يحصل للكامل والناقص، وقوله تعالى في الآية التي بعدها: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[١] يدل على أن المراد النبوة والملك وليس المال[٢].

٤ – أن داود كان له أولاد غير سليمان – عليهما السلام –؛ فلو كان المراد المال لم يخص سليمان من بينهم[٣].

٥ – ما ذكره شيخ الإسلام في كلامه المتقدم من أن كونه ورث ماله ليس صفة مدح لا لداود ولا لسليمان؛ فإن اليهودي والنصراني يرث أباه ماله، والآية سيقت في بيان المدح لسليمان وما خصه الله به من النعمة.

٦ – ما ذكره شيخ الإسلام أيضاً من أن إرث المال هو من الأمور العادية المشتركة بين الناس كالأكل والشرب ودفن الميت، ومثل هذا لا يقص على الأنبياء؛ إذ لا فائدة فيه، وإنما يقص ما فيه عبرة وفائدة تستفاد، وإلا فقول القائل: مات فلان وورث ابنه ماله، مثل قوله: ودفنوه، ومثل قوله: أكلوا وشربوا وناموا ونحو ذلك، مما لا يحسن أن يجعل من قصص القرآن.

٧ – وأما قول الحسن: "النبوة والعلم من فضل الله، لا يكون بالميراث"؛ فيناقش بأن المال إذا ورثه الولد فهو فضل من الله – تعالى –[٤].

---

(١) سورة النمل: الآية ١٧.

(٢) تفسير الرازي ١٦٠/٢٤، وقال: "فأما إذا قيل ورث المال والملك معاً فهذا يبطل بظاهر قوله ﷺ: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث".

(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٤٩١/٢، والقرطبي ١١٠/١٣، و ابن كثير ٣/ ٣٧٠، والشنقيطي ٤/ ٢٢٣.

(٤) انظر: تفسير الرازي ١٦٠/٢٤.

سورة النمل: الآية ٦٠

قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[١].

رجح شيخ الإسلام أن معنى قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أإله مع الله فعل هذا.

قال – رحمه الله – عند هذه الآيات: "أي: أإله مع الله فعل هـــذا؟ وهـــذا استفهام إنكار، وهم مقرُّون بأنه لم يفعل هذا إله آخر مع الله.

ومن قال من المفسرين إن المراد: هل مع الله إله آخر، فقد غلط؛ فإنهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾[٣]، وقال تعالى عنهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[٤]، وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك الله في خلق السموات والأرض ولا خلق شيء؛ بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط كما قال تعالى:

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٠.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٩.
(٣) سورة هود: الآية ١٠١.
(٤) سورة ص: الآية ٥.

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[١]، وقال عن صاحب يس: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾[٢]..."[٣].

وقال – رحمه الله – عند هذه الآيات: "يستفهم فيها كلها استفهام إنكار، هل يفعل هذه الأمور أحد من الآلهة التي يعبدون من دون الله؛ فإن قوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ اسم واحد وقع صفة لإله؛ ليس هو جملة واحدة كما ظنه طائفة من المفسرين، واعتقدوا أن المعنى: مع الله إله؛ فإن القوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى، وقد ذكر ذلك في السورة بقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[٤] فلا يفيد استفهامهم عما هم معترفون به.

وأيضاً فإن جواب المستَفْهَم عنه لا يكون إلا مفرداً لا يكون جملة، فإذا قيل من فعل هذا؟ فإنه يقال: فلان أم فلان، لا يذكر جملة، بل لو كان كذلك لم ينتظم الكلام، ولكن المقصود أن هذه الآلهة التي تدعونها من دون الله هل هي التي فعلت هذه الامور أم الله وحده فعلها ! فإن القوم كانوا مقرين بأن الله وحده هو الفاعل لهذه الأمور، وهذا شأن استفهام الإنكار فانه يتضمن نفي

---

(١) سورة يونس: الآية ١٨.
(٢) سورة يس: الآيتان ٢٢ – ٢٣.
(٣) مجموع الفتاوى ٧٦/٧.
(٤) سورة النمل: الآية ٥٩.

المستفهم عنه والإنكار على من أثبته، والقوم كانوا معترفين بذلك لكن كانوا مع ذلك مشركين به الآلهة التي يعلمون أنها لم تفعل ذلك فأنكر عليهم ذلك وزجروا عنه ومثل هذا في القرآن كثير..."[١].

الدراسة:

اختلف المفسرون في معنى الاستفهام الذي ختمت به هذه الآية، والآيات الأربع بعدها على قولين:

القول الأول: أن المعنى: أإله مع الله فعل هذا؟ والاستفهام هنا إنكاري.

وهذا ما اختاره شيخ الإسلام – كما تقدم – وهو اختيار ابن جرير، وقال: "وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يقول تعالى ذكره: أمعبود مع الله أيها الجهلة خلق ذلك، وأنزل من السماء الماء فأنبت به لكم الحدائق".

وقال عند الآية الثانية: "أإله مع الله سواه فعل هذه الأشياء، فأشركتموه في عبادتكم إياه؟"[٢].

واختاره الواحدي[٣]، والبغوي[٤].

القول الثاني: أن المعنى: هل مع الله إله آخر؟.

وأجازه الفراء، حيث قال: "وقوله ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ مردود على قوله:

---

(١) بيان تلبيس الجهمية ٤٥٦/٢، وانظر: مجموع الفتاوى ٦٨٣/١١.

(٢) تفسيره ١٠١/١٧ – ١٠٢ [ط التركي].

(٣) الوسيط ٣٨٢/٣.

(٤) تفسيره ٤٢٥/٣.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ كذا وكذا، ثم قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ خَلَقَه، وإن شئت جعلت رفعه بمع؛ كقولك: أمع الله وليكم إله"[١].

و اختاره الزمخشري، وقال: "أغيره يقرن به ويجعل شريكاً له"[٢].

واختاره أيضاً السمعاني[٣]، والرازي[٤]، والشوكاني[٥].

هذا ويرى ابن كثير أن القولين متلازمان، حيث ذكر القولين: أإله مع الله يعبد، أإله مع الله فعل هذا، ثم قال: "وهو يرجع إلى معنى الأول؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون ليس ثَمَّ أحد فعل هذا معه، بل هو المتفرد به، فيقال: فكيف تعبدون معه غيره، وهو المستقلُّ المتفرد بالخلق والتدبير؟ كما قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾[٦]"[٧].

وما ذهب إليه ابن كثير هو الظاهر؛ لأنه إذا أمكن حَمل الآية على المعنيين فهو أولى، وتقدم أن الفراء أجاز ذلك.

---

(١) معاني القرآن ٢/٢٩٧.
(٢) تفسيره الكشاف ٣/١٤٨.
(٣) تفسيره ٤/١٠٨.
(٤) تفسيره ٢٤/٢٠٦.
(٥) تفسيره ٤/٢٠٧.
(٦) سورة النحل: الآية ١٧.
(٧) تفسيره ٦/٢٠٢.

سورة النمل: الآية ٦٥

قال تعال﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن الاستثناء في الآية متصل بدليل أن المستثنى مرفوع، وقد بيَّن – رحمه الله – أنه لا يُرد على هذا توهُّم أن الله – جلّ وعلا – داخل في جملة ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾، بل المراد بالسماء كل ما سما، أي: عـــلا وارتفع، وليس المراد بالسموات في الآية السموات السبع.

قال-رحمه الله – عند هذه الآية: "فاستثنى نفسه والعـــالم ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ولا يجوز أن يقال:هذا استثناء منقطع؛لأن المستثنى مرفوع،ولو كان منقطعاً لكان منصوباً،والمرفوع على البدل،والعامل فيه هو العامـــل في المبـــدل منه،وهو بمنْزلة المفرَّغ[٢]،كأنه قال:(لا يعلم الغيب إلا الله) فيلزم أنه داخـــل في ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

وقد قدَّمنا أن لفظ السماء يتناول كل ما سَمَا، ويدخل فيـــه الســـموات والكرسي، والعرش، وما فوق ذلك، لأن هذا في جانب النفي، وهو لم يقل هنا: (السموات السبع) بل عم بلفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾. وإذا كان لفظ (السماء) قـــد

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٥.

(٢) الاستثناء المفرَّغ: هو الذي لم يذكر فيه المستثنى منه. انظر: شرح ابن عقيل لألفية ابـــن مالـــك ١٥٦/٢.

يراد به السحاب ويراد به الفلك ويراد به ما فوق العالم ويراد به العلو مطلقاً فـ(السموات) جمع (سماء) وكل من فيما[1] يسمى (سماء) وكل من فيما يسمى (أرضاً) لا يعلم الغيب إلا الله. وهو سبحانه قال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن﴾ ولم يقل (ما) فإنه لما اجتمع ما يعقل وما لا يعقل غلب ما يعقل وعبر عنه بـ ﴿مَن﴾ لتكون أبلغ فإنهم مع كونهم من أهل العلم والمعرفة لا يعلم أحد منهم الغيب إلا الله. وهذا هو الغيب المطلق عن [جميع المخلوقين] الذي قال فيه: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[2]. والغيب المقيد ما علمه بعض المخلوقات من الملائكة أو الجن أو الإنس وشهدوه، فإنما هو غيب عمن غاب عنه، ليس هو غيباً عمن شهده. والناس كلهم قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا فيكون غيباً مقيدا، أي: غيباً عمن غاب عنه من المخلوقين لا عمن شهده ليس غيباً مطلقا غاب عن المخلوقين قاطبة"[3].

الدراسة:

اختلف المفسرون في نوع الاستثناء في الآية على قولين:

القول الأول: أن الاستثناء متصل، وأجازه الفراء[4]، والزجاج على معنى:

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) سورة الجن: الآية ٢٦.

(٣) مجموع الفتاوى ١٠٩/١٦.

(٤) معاني القرآن ٢٩٨/٢، وانظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣٤٣/١.

لا يعلم أحدٌ الغيب إلا الله، أي: لا يعلم الغيب إلا الله[١]، واختاره العكبري[٢][٣].

واختار القول بالاتصال شيخ الإسلام كما تقدم بدليل أن المستثنى مرفوع، وقد بيَّن – رحمه الله – أنه لا يَرد على هذا توهُّم أن الله – جلّ وعلا – داخل في جملة ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، بل المراد بالسماء كل ما سما، أي: علا وارتفع، وليس المراد بالسموات في الآية السموات السبع، وعلى هذا التأويل يرتفع الإشكال الذي من أجله صرف كثير من المفسرين معناه إلى الانقطاع[٤].

ويناقش بأن ظاهر الآية أن المراد بالسموات والأرض هي المعهودة بدلالة جمعها.

كما اختار الاتصال ابن القيم، وبيَّن أن المراد من ذكر السموات والأرض تحقيق إرادة العموم والإحاطة وليس التعيين، وإليك نص كلامه: "لأن السموات والأرض ههنا أبلغ صيغ العموم وليس المراد بها معيناً، فهي في قوة (أحد) المنفي بقولك: لا يعلم أحد الغيب إلا الله، وأتى في هذا بذكر السموات والأرض تحقيقاً لإرادة العموم والإحاطة، فالكلام مؤدٍ معنى: لا يعلم أحد الغيب إلا الله.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ١٢٧/٤.

(٢) هو عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي، أبو البقاء، محب الدين، عالم بالأدب واللغة والفرائض والحساب، ولد ببغداد سنة ٥٣٨هـ، وتوفي بها سنة ٦١٦هـ، من مؤلفاته: شرح ديوان المتنبي، وإملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن. انظر: بغية الوعاة ٣٨/٢ ترجمة (١٣٧٥)، وشذرات الذهب ٦٧/٥.

(٣) إملاء ما من به الرحمن ص٤١٨.

(٤) انظر: تفسير ابن جزي ١٣٦/٢.

وإنما نشأ الوهم في ظنهم أن الظرف ههنا للتخصيص والتقييد، وليس كذلك؛ بل لتحقيق الاستغراق والإحاطة، فهو نظير الصفة في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾[١] فإنها ليست للتخصيص والتقييد، بل لتحقيق الطيران المدلول عليه بطائر، فكذلك قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لتحقيق الاستغراق المقصود بالنفي، ومن تأمل الآية علم أنه لم يقصد بها إلا ذلك"[٢].

واستحسن أبو حيان أن يُجعل ﴿مَن﴾ مفعولاً و ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾ بدلاً منه، ولفظ الجلالة فاعل، والتقدير: لا يعلم غيب من في السموات والأرض إلا الله، أي: الأشياء الغائبة التي تحدث في العالم[٣]، وفيه تكلّف[٤].

القول الثاني: أن الاستثناء في الآية منقطع[٥]، فالله – جلَّ وعلا – غير داخل في ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ويَرد على هذا القول إشكال، وهو أن المستثنى في الآية – لفظ الجلالة – مرفوع[٦]، وحكمه على هذا الرأي النَّصب، وقد أجاب عنه أصحابُ هذا القول بأجوبة منها: أنه جاء على لغة تميم؛ فإنهم

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

(٢) بدائع الفوائد ٣/٥١ – ٥٢، وانظر: تفسير ابن جزي ٢/١٣٥، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم ١/٣٤٣.

(٣) تفسيره ٧/٨٧.

(٤) واستغربه السمين في الدر المصون ٨/٦٣٣، وصححه الجمل في الفتوحات الإلهية ٥/٤٥٨.

(٥) الاستثناء المنقطع هو الذي لا يكون داخلاً في الأول، بل يكون في حكم المستأنف، وتقدَّر (إلا) فيه بلكن، انظر: ضياء السالك ٢/١٨٦.

(٦) قرأ العشرة بالرفع.

يجيزون الرفع على البدليَّة هنا[١]، وبه قال الزمخشري[٢].

وتعقَّبه ابن جزي بأن القرآن أُنزل بلغة الحجاز، لا بلغة تميم[٣].

والراجح – والله أعلم – القول الأول، وهو أن الاستثناء متصل، والتقدير لا يعلم أحدٌ الغيب إلا الله، كما ذهب إليه شيخ الإسلام ومن وافقه، وذلك لسلامة هذا القول من الاعتراض الصحيح.

(١) أي أنه بدل من ﴿ مَن ﴾ التي هي في موضع الفاعل ليعلم، انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣٣٠/١.

(٢) الكشاف ١٤٩/٣، وله في اختيار المذهب التميمي هنا تأويل.

(٣) تفسيره ١٣٥/٢، وضعّفه أيضاً ابن القيم في بدائع الفوائد ٥١/٣.

سورة النمل: الآية ٨٠

قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بالموتى في الآية هم الذين ماتوا بالفعل، وأن المراد بالسماع المنفي في الآية هو السماع المعتاد الذي ينتفع به صاحبه.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "إنما أراد به السماع المعتاد الذي ينفع صاحبه؛ فإن هذا مَثَل ضُربَ للكفار، والكفار تسمع الصوت لكن لا تسمع سماع قبول بفقه واتِّباع، كما قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾[٢].

فهكذا الموتى الذين ضُرب لهم المثل لا يجب أن ينفى عنهم جميعُ السماع المعتاد أنواع السماع، كما لم يُنْفَ ذلك عن الكفار؛ بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذين ينتفعون به، وأما سماع آخر فلا ينفي عنهم.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما[٣] أن الميت يسمع خَفْقَ نعالهم إذا ولوا مدبرين؛ فهذا موافق لهذا، فكيف يدفع ذلك.."[٤].

---

(١) سورة النمل: الآية ٨٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧١.

(٣) أخرجه البخاري ٢٦٢/٣ ح١٣٣٨، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، ومسلم في ٢٢٠٠/٤ ح٢٨٧٠، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه، عن أنس بن مالك ﷺ.

(٤) مجموع الفتاوى ٤/ ٢٩٨، وانظر: ٢٤ / ٣٦٣.

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بالموتى في الآية على قولين:

القول الأول: ذهب عامة المفسرين ومنهم: ابن جرير[١]، والسمرقندي[٢]، والزمخشري[٣]،وابن عطية[٤]،والقرطبي[٥]،وأبو حيان[٦]،إلى أن المراد بالموتى في الآية هم الكفار الأحياء[٧]. وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ﴾، قال: "هذا مثل ضربه الله للكافر،كما لا يسمع الميت كذلك لا يسمع الكافر ولا ينتفع به"[٨]. قال أبو حيان: "أخبر تعالى عنهم أنهم موتى القلوب، أو شبهوا بالموتى وإن كانوا أحياء صحاحَ الأبصار؛ لأنهم إذا تُلي عليهم لا تعيه آذانهم، فكانت حالهم لانتفاء جدوى السماع كحال الموتى"[٩].

القول الثاني: وذهب شيخ الإسلام – كما تقدم – إلى أن المراد بالموتى هم الموتى على الحقيقة، وهو ظاهر اختيار ابن كثير[١٠].

---

(١) تفسيره ١٣/١٠.

(٢) تفسيره ٥٠٤/٢.

(٣) تفسيره ١٥٢/٣.

(٤) تفسيره ١٣٠/١٢.

(٥) تفسيره ١٥٤/١٣.

(٦) تفسيره ٩١/٧.

(٧) قال بعض المفسرين: المراد الكفار الذين يموتون على الكفر، انظر: تفسير الماوردي ٣٢٢/٤، قال ابن عطية: "قال العلماء: الميت من الأحياء هو الذي يلقى الله بكفره"١٣٠/١٢.

(٨) تفسير ابن أبي حاتم ٢٩٢٠/٩.

(٩) تفسير أبي حيان ٩١/٧، وانظر: معاني القرآن للزجاج ١٩٠/٤، وتفسير ابن عاشور ٢٠/ ٣٤.

(١٠) تفسير ابن كثير ٣ / ٣٨٦، ٤٤٧.

هذا وقد حرر هذه المسألة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي تحريراً بالغاً، حيث ذكر القولين بأدلتهما، وإليك كلامه: عند هذه الآية: "اعلم أن التحقيق الذي دلت عليه القرائن القرآنية واستقراء القرآن أن معنى قوله هنا: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ لا يصح فيه من أقوال العلماء إلا تفسيران:

الأول: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي: لا تسمع الكفار، الذين أمات الله قلوبهم، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه إسماع هدى وانتفاع؛ لأن الله كتب عليهم الشقاء، فختم على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على قلوبهم الأكنة، وفي آذانهم الوقر، وعلى أبصارهم الغشاوة.

ومن القرائن الدالة على ما ذكرنا:

أ - قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1] فمقابلته - جل وعلا - بالإسماع المنفي في الآية عن الموتى بالإسماع المثبت فيها لمن يؤمن بآياته دليل واضح على أن المراد بالموت في الآية موت الكفر والشقاء، ولو كان المراد بالموت الذي هو مفارقة الروح للبدن لقابله بما يناسبه كأن يقال: إن تسمع إلا من لم يمت.

ب - أن استقراء القرآن العظيم يدل على هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾[2]، وقد أجمع من يعتد به من أهل

(١) سورة النمل: الآية ٨١.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٦.

العلم أن المراد بالموتى في هذه الآية الكفار، ويدل له مقابلة الموتى في قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بالذين يسمعون في قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، ولو كان المراد بالموتى من فارقت أرواحُهم أبدانَهم لقابل الموتى بما يناسبهم كأن يقال: إنما يستجيب الأحياء.

ج - أن هذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وما في معناها من الآيات كلها تسلية له ﷺ؛ لأنه يحزنه عدم إيمانهم كما بينه تعالى في آيات كثيرة، ولو كان المراد بالموتى من فارقت أرواحهم أبدانهم لما كان في ذلك تسلية له ﷺ.

التفسير الثاني: هو أن المراد بالموتى الذين ماتوا بالفعل، ولكن المراد بالسماع المنفي في قوله ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ﴾ خصوص السماع المعتاد الذي ينتفع صاحبُه به، وأن هذا مَثل ضُرب للكفار، والكفار يسمعون الصوت لكن لا يسمعون سماع قبول بفقه واتباع، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾[1]، فهكذا الموتى الذين ضرب بهم المثل لا يجب أن يُنفى عنهم جميع أنواع السماع كما لم يُنْفَ ذلك عن الكفار، بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذين ينتفعون به[2].

والراجح - والله تعالى أعلم - ما ذهب إليه عامة المفسرين من أن المراد بالموتى في الآية الكفار الذين كتب الله عليهم الشقاء؛ وذلك لأن سياق الآية واستعمال القرآن يدل عليه.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧١.

(٢) أضواء البيان ٤١٦/٦، بتصرف واختصار.

سورة النمل: الآية ٨٧

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أنه لا يمكن الجزم بتعيين كل من استثناه الله تعالى في هذه الآية من الصعق.

قال – رحمه الله –: "وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكل من استثناه الله؛ فإن الله أطلق في كتابه.. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: "إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى آخذاً بساق العرش فلا أدري هل أفاق قبلي أم كان ممن استثناه الله؟"[٢] وهذه الصعقة قد قيل إنها رابعة، وقيل إنها من المذكورات في القرآن.

وبكل حال: النبي ﷺ قد توقف في موسى وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا؟ فإذا كان النبي ﷺ لم يخبر بكل من استثنى الله: لم يمكنا نحن أن نجزم بذلك وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء وأمثال ذلك مما لم يخبر به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر. والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم"[٣].

---

(١) سورة النمل: الآية ٨٧.

(٢) يأتي تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى ٤/٢٦١.

الدراسة:

اختلف المفسرون فيمن استثناهم الله في هذه الآية من أن ينالهم الفزع على أربعة أقوال:

القول الأول: أنهم الشهداء؛ وبه قال أبو هريرة[١]، وسعيد بن جبير[٢]، وروي مرفوعاً إلى النبي ﷺ[٣]، واختاره ابن جرير[٤].

قال ابن عطية: "وتظاهرت الروايات بأن الاستثناء في هذه الآية إنما أريد به الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وهم أهل للفزع لأنهم بَشَر، لكن فضلوا بالأمن في ذلك اليوم"[٥].

واختاره القرطبي لحديث أبي هريرة، قال: "وقد صححه القاضي أبو بكر العربي فليعوَّل عليه، لأنه نص في التعيين وغيره اجتهاد"[٦].

واختاره أيضاً ابن كثير[٧].

القول الثاني: أنهم جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت؛ وبه قال

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٣٥/١٨ [ط التركي]، وعزاه السيوطي في الدر ٢٢١/٥ أيضاً لسعيد بن منصور.

(٢) أخرجه النحاس في معاني القرآن ١٤٩/٥.

(٣) أخرجه ابن جرير ١٣٢/١٨، ١٣٣، وابن أبي حاتم ٢٩٣٠/٩، عن أبي هريرة، وفيه راوٍ مجهول.

(٤) تفسيره ١٣٥/١٨ ط التركي.

(٥) تفسيره ١٣٦/١٢.

(٦) تفسيره الجامع لأحكام القرآن ١٦٠/١٣.

(٧) تفسيره ٣٨٩/٣.

مقاتل بن حيان[١] [٢].

القول الثالث: أنهم الحور العين، وخزنة النار، وحملة العرش؛ قاله الضحاك[٣].

القول الرابع: أنهم المؤمنون[٤]، لقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[٥]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٦]، واختاره ابن عاشور[٧].

وهناك أقوال أخرى، لا تخرج عن هذه[٨].

والراجح – والله أعلم – ما ذهب إليه شيخ الإسلام، ومن وافقه لأنه لا يمكن الجزم بكل من استثناه الله تعالى، لعدم الدليل الصحيح في ذلك، ولأن النبي ﷺ

---

(١) هو الإمام مقاتل بن حيان النَبَطي، أبو بسطام البلخي الخزاز، محدث ثقة، مات في خدود الخمسين ومائة بأرض الهند. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٤٠/٦، وتقريب التهذيب ص٥٤٤.

(٢) أخرجه النحاس في معاني القرآن ١٤٩/٥، وانظر: تفسير البغوي ٣٤١/٣.

(٣) ذكره عنه أبو حيان في تفسيره ٩٣/٧، وانظر: تفسير الألوسي ٣٣/٢٠.

(٤) ذكره القرطبي ١٦٠/١٣.

(٥) سورة النمل: الآية ٨٩.

(٦) سورة الأنبياء: الآيات ١٠١ – ١٠٣.

(٧) تفسيره ٤٦/٢٠، وتعقّبه الألوسي ٣٣/٢٠ بأن الفزع في الآية الأولى (ففزع) غير الفزع في الآية الأخرى ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ﴾.

(٨) ذكر الحافظ في الفتح ٤٥٠/١١ – ٤٥١ عشرة أقوال.

توقَّف في موسى عليه السلام كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "لا تخيروني على موسى؛ فإن الناس يَصعَقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أولَ من يفيق، فإذا موسى باطش[١] بجانب العرش، فلا أدري أكان موسى فيمن صَعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله عز وجل"[٢].

وما ورد عن السلف من التعيين يكون من باب التمثيل لا الحصر[٣]، قال الشوكاني: "ويمكن أن يكون الاستثناء شاملاً لجميع المذكورين، فلا مانع من ذلك"[٤].

(١) أي: آخذ بشيء من العرش بشدة، والبطش الأخذ بشدة. فتح الباري ٥٤١/٦.

(٢) أخرجه البخاري ٤٤٦/١١ ح٦٥١٧، كتاب الرقاق، باب نفخ الصور، ومسلم ١٨٤٤/٤ ح٢٣٧٣، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: تفسير القرطبي ١٦٠/١٣.

(٤) تفسيره ٢١٨/٤.

سورة النمل: الآيتان ٨٩ - ٩٠

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بالحسنة بالآية جميعُ أعمال البر، وأعلاها قول لا إله إلا الله، وأن المراد بالسيئة جميع الذنوب وأعظمها الشرك.

قال - رحمه الله - بعد أن ذكر أقوال السلف في المراد بالحسنة والسيئة: "فمن قال الحسنة (لا إله إلا الله) لم يرد أن هذه الكلمة وحدها هي الحسنة دون العمل بمقتضاها، بل هي عنده الشجرة الجامعة، والأعمال داخلة فيها وفروع لها.

وكذلك السيئة هي العمل لغير الله، وهذا هو الشرك؛ فإن الإنسان همام وحارث لابد له من عمل، ولابدله من مقصود معبود يعمل لأجله، فالعمل لله هو الإخلاص والتوحيد له، والعمل لغيره هو الشرك، وإن عمل لله ولغيره فذلك أيضا شرك والذنوب كلها جزء من الشرك، وهي ومن فروعه؛ فإنها جميعها طاعة للشيطان واتباع لخطواته، قال الله - تعالى -: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[2].

---

(١) سورة النمل: الآيتان ٨٩ - ٩٠.

(٢) سورة يس: الآيتان ٦٠ - ٦١.

وقال الشيطان: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[١]"[٢].

ثم ذكر كلاماً مضمونَه: أن المراد بالحسنة بالآية هي قول لا إله إلا الله إذا قالها العبد قائماً بشروطها ولوازمها ومات على ذلك؛ حيث تكون حسناته راجحة على سيئاته.

وأن المراد بالسيئة في الآية هي الشرك الأكبر، أو الشرك الأصغر[٣] إذا كبُر عنده حتى رجحت سيئاته على حسناته[٤].

الدراسة:

هاتان الآيتان فيهما مسألتان اختلف فيهما المفسرون:

أولاً: اختلف المفسرون في المراد بالحسنة في الآية الأولى على خمسة أقوال:

القول الأول: ذهب عامة المفسرين كالواحدي[٥]، والبغوي[٦]، والنسفي[٧]، وابن كثير[٨]، وأبي السعود[٩] إلى أن المراد بالحسنة (لا إله إلا الله)

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.
(٢) تفسير آيات أشكلت ١/ ٣٤٨، وانظر: مجموع الفتاوى ١٥/٤٤٠.
(٣) وتقدم في كلامه السابق أنه يطلق على جميع المعاصي حيث إنها طاعة للشيطان.
(٤) تفسير آيات أشكلت ١/٣٦٣، وانظر: ١/٣٩٢.
(٥) الوسيط ٣/٣٨٧.
(٦) تفسيره ٣/٤٣٢.
(٧) تفسيره ٢/٢٥١.
(٨) تفسيره ٣/٣٩٠.
(٩) تفسيره ٦/٣٠٥.

بل حكى القرطبي الإجماع على ذلك[١]، ولا يوافق عليه. ويستدل لهذا القول بما يلي:

١ - أنه الوارد عن السلف، حيث رُوي عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي هريرة ﷺ، كما روي عن علي بن الحسين[٢]، والنخعي، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، ومحمد بن كعب، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وعطاء، وأبي صالح، والزهري، وزيد بن أسلم[٣]، وقتادة[٤].

ورُوي أيضاً عن ابن مسعود وأبي هريرة - رضي الله عنهما -، والنخعي، ومحمد بن كعب، وسعيد بن جبير، وأبي صالح، والزهري، وزيد بن أسلم[٥].

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/١٦٢.

(٢) هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي المدني، زين العابدين، ثقة ثبت عابد فقيه فاضل مشهور، قال الزهري: "ما رأيت قرشياً أفضل منه"، توفي سنة ٩٣هـ، وقيل غير ذلك. انظر: تهذيب التهذيب ٧/٣٠٤، وتقريب التهذيب ص٤٠٠.

(٣) هو زيد بن أسلم العدوي العمري مولاهم، أبو أسامة، أو أبو عبد الله، فقيه مفسر، كانت له خلقة للعلم في مسجد النبي ﷺ له كتاب في التفسير رواه عنه ولده عبد الرحمن، توفي سنة ١٣٦هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٣/٣٩٥، وطبقات الداوودي ١/١٧٦.

(٤) تفسير ابن جرير ١٠/٢٢، وابن أبي حاتم ٩/٢٩٤٣، وقد روي في ذلك أحاديث مرفوعة منها حديث أبي هريرة ﷺ، قال يحيى - أحد الرواة -: أحسبه عن النبي ﷺ قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ قال: "وهي لا إله إلا إلا الله ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ قال: وهي الشرك"أخرجه ابن جرير ١٠/٢٢، ولعل الأرجح وقفه على أبي هريرة كما هي رواية ابن أبي حاتم ٩/٢٩٣٥، كما رويت أحاديث أخرى بمعناه عن صفوان ابن عسَّال وأنس، وكعب بن عجرة، وعقبة بن عامر ﷺ. انظر: الدر المنثور ٥/٢٢٢ ولكن في ثبوت هذه الأحاديث مرفوعةً نظر، والله أعلم.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٩/٢٩٣٤.

القول الثاني: أن المراد بالحسنة أداء الفرائض[١].

القول الثالث: أن المراد بالحسنة كل طاعة[٢].

القول الرابع: أن المراد بالحسنة الإيمان، واختاره ابن عطية[٣]، والرازي[٤]، وأبو حيان[٥].

القول الخامس: أن المراد بالحسنة كل طاعة وأفضلها قول لا إله إلا الله لمن حقق شروطها، ولقي الله - تعالى - وقد رجحت سيئاتُه على حسناته وهو اختيار شيخ الإسلام كما تقدم، واختاره الشوكاني[٦]، والسعدي حيث قال: "الحسنة: اسم جنس يشمل كل حسنة قولية أو فعلية أو قلبية"[٧]، وابن عاشور؛ حيث قال: "والحسنة والسيئة هنا للجنس وهو يحمل على أكمل أفراده في المقام الخطابي، أي: من تمخضت حالته للحسنات أو كانت غالب أحواله كما يقتضيه قوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾..."[٨]، وهو ظاهر اختيار ابن جرير؛ حيث قال: "توحيد الله، والإيمان به، وقول لا إله إلا الله موقناً به قلبه"[٩]، وبنحوه قال

(١) المرجع السابق ١٣/١٦٢.
(٢) تفسير البغوي ٣/٤٣٢.
(٣) تفسيره ١٢/١٣٧.
(٤) تفسيره ٢٤/١٩٠.
(٥) تفسيره ٧/٩٥
(٦) تفسيره ٤/٢١٩.
(٧) تفسير السعدي ص٦١٠.
(٨) تفسير ابن عاشور٢٠/٥٢.
(٩) تفسيره ١٠/٢١.

السمرقندي[١]، ولعل من قال بالأقوال الثلاثة قبله يريد هذا المعنى، ويستدل لهذا القول بما يلي:

١ – أن جميع أعمال البر داخلة في التوحيد، فإن التوحيد هو معنى لا إله إلا الله، وهو أن يعبد الله بما أمر به؛ فمن قال الحسنة: (لا إله إلا الله) لم يرد أن هذه الكلمة وحدها هي الحسنة دون العمل بمقتضاها[٢].

٢ – أن الألف واللام في الآية للجنس أي من جاء بجنس الحسنة؛ فلا وجه للتخصيص[٣].

٣ – سياق الآية؛ حيث قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ فهذا الوعد لا يتحقق إلا لمن قام بالواجب ورجحت حسناته على سيئاته[٤].

المسألة الثانية: اختلف المفسرون في المراد بالسيئة في الآية الثانية على قولين:

القول الأول: ذهب عامة المفسرين إلى أن المراد بالسيئة الشرك، وممن اختاره ابن جرير[٥]، و السمرقندي[٦]، والواحدي[٧]، والبغوي[٨]، والنسفي[٩]،

---

(١) تفسيره ٥٠٦/٢.
(٢) تفسير آيات أشكلت ٣٧٤/١، بتصرف.
(٣) تفسير الشوكاني ٢١٩/٤، وابن عاشور ٥٢/٢٠، والسعدي ص٦١٠.
(٤) تفسير آيات أشكلت ٣٦٣/١.
(٥) تفسيره ٢١/١٠.
(٦) تفسيره ٥٠٢/٢.
(٧) الوسيط ٣٨٧/٣.
(٨) تفسيره ٤٣٢/٣.
(٩) تفسيره ٢٥١/٢.

بل حكى القرطبي الإجماع على ذلك[١]، ولا يوافق عليه، ويستدل لهذا القول بما يلي:

١ - أنه الوارد عن السلف، حيث رُوي عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي هريرة، وأنس بن مالك ﷺ، والنخعي، وعكرمة، والضحاك، ومحمد بن كعب، والحسن، وعطاء، وقتادة، وزيد بن أسلم[٢]، ومجاهد[٣]،كما روي عن أبي وائل، وسعيد بن جبير، وأبي صالح، والزهري، والسدي[٤].

٢ - سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ فهذا الجزاء لا يكون إلا بمثل سيئة الشرك[٥].

القول الثاني: أن المراد بالسيئة الشرك، أو سائر المعاصي إذا رجحت على الحسنات، وهو اختيار شيخ الإسلام كما تقدم، واختاره ابن عطية[٦]، وأبو حيان[٧]، وابن كثير[٨]، والسعدي[٩]، وابن عاشور[١٠]. ويستدل لهذا القول بما يلي:

---

(١) تفسير القرطبي ١٦٢/١٣.
(٢) تفسير ابن جرير ٢٢/١٠، وابن أبي حاتم ٢٩٣٤/٩.
(٣) تفسير ابن جرير ٢٢/١٠.
(٤) تفسير بن أبي حاتم ٢٩٣٤/٩.
(٥) تفسير الشوكاني ٢١٩/٤.
(٦) تفسيره ١٣٨/١٢.
(٧) تفسيره ٩٦/٧.
(٨) تفسيره ٣٩٠/٣.
(٩) تفسيره ص٦١١.
(١٠) تفسيره ٥٢/٢٠.

١ - ما ذكره شيخ الإسلام من أن السيئة هي العمل لغير الله، وهذا هو الشرك؛ حيث إنها طاعة للشيطان، وعليه يحمل تفسير السلف لها بالشرك.

٢ - سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهذا الوعيد لا يحصل إلا للمشرك شركاً أكبر أو رجحت سيئاتُه على حسناته[1].

ولعل الراجح ما ذهب إليه شيخ الإسلام ومن وافقه في المسألتين؛ لأن كلام السلف يمكن أن يوجه على هذا المعنى عملاً بدلالة النصوص الأخرى، والله - تعالى - أعلم.

(١) انظر: تفسير ابن كثير٣/٣٩٠، وابن عاشور ٢٠/٥٢.

سورة القصص: الآية ٢٣

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾[١].

رجح شيخ الإسلام أن هذا الشيخ الذي صاهره موسى ليس شعيباً النبي عليه السلام وله رسالة خاصة في هذه المسألة، أبطل فيها القول بأن هذا الرجل شعيب النبي عليه السلام، من وجوه متعددة، وهي كما يلي:

١- أنه لم ينقل عن النبي ﷺ، ولا عن الصحابة والتابعين ولا عن من يحتج بقوله من علماء المسلمين.

ويناقش: بأنه ورد عن بعض السلف كما يأتي، وقال به جمهور المفسرين.

٢- أنه مخالف لأهل الكتابين؛ فإنهم متفقون على أنه ليس هو شعيب النبي، بل هو يثرون.

ويناقش: بأنه قد قيل إن المراد بيثرون عندهم شعيب النبي عليه السلام كما يأتي.

٣- أن شعيباً النبي كان عربياً، كما ذكر غير واحد من العلماء، وموسى كان عبرانياً، فلم يكن يعرف لسانه.

٤- أن القرآن يدلُّ على أن الله أهلك قوم شعيب بالظلَّة[٢]، فحينئذ لم يبق

---

(١) سورة القصص: الآية ٢٣.

(٢) الظُّلَّة: سحابة أظلتهم، فلما تناموا تحتها التهبت عليهم ناراً، وأحرقتهم. انظر: تفسير ابن جرير ٩/٤٧٣.

في مدين من قوم شعيب أحد.

ومن قال: إنه ابن أخي شعيب، أو ابن عمِّه لم ينقل ذلك عن ثبت، والنقل الثابت عن ابن عباس لا يعارض بمثل قول هؤلاء"[١].

الدراسة:

اختلف المفسرون في هذا الرجل الذي صاهره موسى على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه سيِّد أهل الماء يومئذٍ؛ قاله الحسن، حيث قال: "يقولون شعيب صاحب موسى، ولكنه سيِّد أهل الماء يومئذ"[٢]، ويناقش بأنه لو كانتا ابنتي سيدِ أهل الماء لكانتا أولَ الناس تَسقيان، ولم تمكثا حتى يُصدر الرعاء فَتَتَبَّعان فضلاتهم.

القول الثاني: أنه يَثْرون ابن أخي شعيب؛ قاله أبو عبيدة بن عبدالله بن مسعود[٣] [٤]، وبه قال ابن السائب[٥]، وعن ابن عباس – رضي الله عنهما –

---

(١) جامع الرسائل ٦١/١ – ٦٦، وانظر: الجواب الصحيح ٢٤٩/٢.

(٢) أخرجه ابن جرير ٢٢٤/١٨ [ط التركي]، وعزاه في الدر ٢٣٨/٥ لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) هو أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود الهذلي الكوفي، يقال: اسمه عامر، روى عن أبيه وعائشة، وحدث عنه النخعي والأفطس، توفي سنة ٨١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٦٣/٤، وتهذيب التهذيب ٧٥/٥.

(٤) أخرجه ابن جرير ٢٢٣/١٨ [ط التركي]، وذكره في الدر ٢٣٨/٥، وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) نسبه إليه ابن الجوزي ٩٦/٦، ونسبه الثعلبي ٢٤٤/٧ لابن جبير ووهب.

أنه: يثْرى صاحب مدين[١]. وقد قيل: إن شعيباً هو المسمى عند اليهود يثرون[٢].

القول الثالث: أنه شعيب النبي ﷺ، وقد ورد فيه أثر مرفوع[٣]، وبه قال أنس بن مالك رضي الله عنه[٤]، ووهب[٥]، ومقاتل[٦].

ونسبه الثعلبي لمجاهد والضحاك والسدي والحسن[٧]، واختاره الزمخشري[٨]، والسمعاني ونسبه لأكثر أهل التفسير[٩] والواحدي[١٠]، ونسبه ابن عطية للجمهور[١١].

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢٢٣/١٨ [ط التركي].

(٢) انظر: تفسير الألوسي ٦١/٢٠، وابن عاشور ١٠١/٢٠.

(٣) أخرجه الواحدي في الوسيط ٣٩٧/٣، وهو ضعيف، منكر المتن.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٢٣٨٨/٥.

(٥) هو وهب بن منبه بن كامل الأبناوي الصنعاني الذماري، أبو عبد الله، مؤرخ، كثير الأخبار عن الكتب القديمة، تابعي، ثقة، أخرج له الستة، ولد بصنعاء سنة ٣٤هـ، وتوفي بها سنة ١١٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٥٤٤/٤، وتهذيب التهذيب ١٦٦/١١.

(٦) ذكره عنهما ابن الجوزي ٩٦/٦.

(٧) تفسير الثعلبي ٢٤٤/٧.

(٨) الكشاف ١٦٢/٣.

(٩) تفسيره ١٣٢/٤ – ١٣٣.

(١٠) الوسيط ٣٩٦/٣.

(١١) تفسير ابن عطية ١٥٩/١٢.

وقال ابن الجوزي: "وعلى هذا أكثر أهل التفسير"[١].

واختاره ابن جزي[٢]، والقرطبي، ونسبه للجمهور، وقال: "وهو ظاهر القرآن"[٣]، واختاره الشوكاني[٤].

وقد ردَّ هذا القول الحسنُ، وشيخُ الإسلام كما تقدم.

والراجح – والله تعالى أعلم – أن هذا الرجل من أهل مدين لكنه لا يعرف، لعدم وجود الدليل على تعيينه، واختاره ابن جرير، وقال بعد أن ذكر بعض الأقوال في تعيين اسمه: "وهذا مما لا يدرك علمُه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حُجَّته"[٥]، وهو اختيار شيخ الإسلام – كما تقدم –.

---

(١) تفسيره ٩٦/٦.

(٢) تفسيره ١٤٢/٢، ونسبه للجمهور، وكذا أبو حيان ١٠٩/٧.

(٣) تفسيره ٢٨١/١٣.

(٤) تفسيره ٢٣٧/٤.

(٥) تفسيره ٢٢٤/١٨ [ط التركي].

سورة القصص: الآية ٨٨

قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١).

اختار شيخ الإسلام أن معنى قوله تعالى: ﴿هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إلا ما أريد به وجهُه(٢).

قال – رحمه الله –: "تفسير الآية بما هو مأثور ومنقول عمن قاله من السلف والمفسرين من أن المعنى: كل شيء هالك إلا ما أُريد به وجهه؛ فإنه ذكر ذلك بعد نهيه عن الإشراك وأن يدعو معه إلهاً آخر، وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقتضي أظهر الوجهين، وهو أن كل شيء هالك إلا ما كان لوجهه من الإيمان

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٢) قال الشيخ مناع القطان – رحمه الله –: "وهذا لا يتعارض مع ما ذكره شيخ الإسلام في العقيدة الواسطية من الاستدلال بالآية ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ على إثبات صفة الوجه لله – تعالى – على ما يليق به؛ لأن إضافة الوجه إلى الله – تعالى – أو إلى ضميره يحمل فيها الوجه على الحقيقة بما يليق به – سبحانه –، أما المعنى الإسنادي للجملة وحمل المراد به على ما أريد به وجه الله فإنه لا يعارض ذلك؛ فإن السلف يفسرون المعنى الإسنادي باللازم ولا ينفون حقيقة الصفة، وهذا لا بأس به. بخلاف من يفسرون باللازم وينفون الصفة". قواعد الترجيح عند المفسرين ١/١٧٥ هامش (٢).

وقال الشيخ محمد العثيمين: "وعلى طريقة من يقول بجواز استعمال المشترك في معنييه؛ نقول: يمكن أن نحمل الآية على المعنيين؛ إذ لا منافاة بينهما، فتحمل على هذا وهذا، فيقال: كل شيء يفنى إلا وجه الله عز وجل، وكل شيء من الأعمال يذهب هباءً إلا ما أريد به وجه الله عز و جل. وعلى أي التقديرين؛ ففي الآية دليل على ثبوت الوجه لله عز وجل". شرح العقيدة الواسطية للعثيمين ١/٢٨٦.

والأعمال وغيرهما، روي عن أبي العالية قال: إلا ما أريد به وجهه.

وعن جعفر الصادق[١]: إلا دينه[٢].

ومعناهما واحد، وقد روي عن عبادة بن الصامت قال: يجاء بالدنيا يوم القيامة فيقال: ميزوا ما كان لله منها، ثم يؤمر بسائرها فيلقى في النار[٣].

وقد روي عن علي ما يعمُّ، ففي تفسير الثعلبي عن صالح بن محمد[٤]، عن سليمان بن عمرو[٥]، عن سالم الأفطس[٦]، عن الحسن وعن سعيد بن جبير، عن علي بن أبي طالب: أن رجلا سأله فلم يعطه شيئا فقال: أسألك بوجه الله، فقال له علي: كذبت ليس بوجه الله سألتني إنما وجه الله الحق ألا ترى إلى قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ يعني الحق، ولكن سألتني بوجهك الخلق[٧].

---

(١) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق، من أجلاء التابعين، له منْزلة رفيعة في العلم، ولد بالمدينة سنة ٨٠هـ، وتوفي بها سنة ١٤٨هـ. انظر: حلية الأولياء ١٩٢/٣، وسير أعلام النبلاء ٢٥٥/٦.

(٢) تفسير الثعلبي ٢٦٧/٧.

(٣) المرجع السابق ٢٦٧/٧.

(٤) هو صالح بن محمد بن عمرو بن حبيب الأسدي بالولاء، أبو علي المعروف بجَزَرَةَ، من أئمة أهل الحديث، ولد بالكوفة سنة ٢١٠هـ، وتوفي ببخارى سنة ٢٩٣هـ، كان أحفظ الناس في عصره. انظر: تاريخ بغداد ٣٢٢/٩ ترجمة رقم (٤٨٦٢)، وسير أعلام النبلاء ٢٣/١٤.

(٥) هو سليمان بن عمرو بن الأحوص الجُشَمي الكوفي، روى عن أبيه وأمه ولهما صحبة. انظر: تهذيب التهذيب ٢١٢/٤، وتقريب التهذيب ص٢٥٣.

(٦) هو سالم بن عجلان الأفطس الأُموي مولاهم الجزري، ثقة في الحديث، روى له البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه، توفي سنة ١٣٢هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٤٤١/٣، والوافي بالوفيات ٨٧/١٥.

(٧) في تفسير الثعلبي ٢٦٧/٧: (الخالق).

وعن مجاهد: إلا هو[١]. وعن الضحاك: كل شيء هالك إلا الله والجنة والنار والعرش[٢]. وعن ابن كيسان: إلا ملكه[٣].

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية؛ كالجنة والنار والعرش وغير ذلك،..."ثم بيَّن بطلان قول من قال بفناء جميع المخلوقات[٤].

وقال – رحمه الله تعالى –: "اسم الوجه في الكتاب والسنة، إنما يذكر في سياق العبادة له، والعمل له، والتوجه إليه، فهو مذكور في تقرير ألوهيته وعبادته وطاعته، لا في تقرير وحدانية كونه خالقاً ورباً..."، إلى أن قال: "وإذا كان كذلك كان حمل اسم الوجه في هذه الآية على ما يدل عليه في سائر الآيات أولى من حمله على ما [لا] يدل عليه لفظ الوجه في شيء من الكتاب والسنة بل هذا هو الواجب دون ذاك لأن هذا استعمال للفظ فيما لم يرد به الكتاب، والكتاب قد ورد بغيره حيث ذكر"[٥].

وقال – رحمه الله – عند هذه الآية: "وقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ يقتضي أظهرَ الوجهين، وهو أن كل شيء هالك إلا ما كان لوجهه من الأعيان والأعمال وغيرها..."، إلى أن قال: "فقوله: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ أي: دينه

(١) المرجع السابق ٢٦٧/٧، وسيأتي أن الثابت عنه هو القول الآخر: "إلا ما أريد به وجهه"، وقد ذكره عنه شيخ الإسلام في تفسير آيات أشكلت ٤١١/١.
(٢) ذكره أبو حيان في تفسيره ١٣٣/٧.
(٣) ويأتي ذكر من قال به.
(٤) بيان تلبيس الجهمية ٥٨٠/١.
(٥) مجموع الفتاوى ٣٠/٢.

وإرادته وعبادته، والمصدر يضاف إلى الفاعل تارة، وإلى المفعول أخرى، وهو قولهم: ما أريد به وجهه، وهو نظير قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1] فكل معبود دون الله باطل، وكل ما لا يكون لوجهه فهو هالك فاسد باطل، وسياق الآية يدل عليه"[2].

الدراسة:

اختلف العلماء في المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ على ستة أقوال:

القول الأول: أن المعنى: إلا ما أريد به وجهُه، وبه قال ابن عباس – رضي الله عنهما –[3]، ومجاهد، وسفيان الثوري[4] [5]، وأبو العالية[6]، واستُدل[7] لهذا القول بقول الشاعر:

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٤٢٧/٢ – ٤٣٣، وانظر: ١٦٦/٨، وتفسير آيات أشكلت ٤١١/١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لعبد بن حميد ٢٦٧/٥.

(٤) هو الإمام الحافظ الحجة الزاهد أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أحد الأئمة الحفاظ الفقهاء العباد، توفي عام ١٦١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٢٩/٧، وتقريب التهذيب ص٢٤٤.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٣٠٢٨/٩.

(٦) تفسير البغوي ٤٥٩/٣، وذكره الإمام البخاري في الصحيح حيث قال عند هذه الآية: "إلا ملكه، ويقال: إلا ما أريد به وجه الله"٦٤١/٨ كتاب التفسير، سورة القصص، قال ابن كثير: "حكاه البخاري في صحيحة كالمقرر له"تفسير ابن كثير ٤١٤/٣، ولا يظهر لي في ما ذكره البخاري اختيار، واختاره أيضاً الواحدي في الوسيط ٤١١/٣.

(٧) انظر: تفسير ابن جرير ١١٩/١٠.

أستغفرُ اللهَ ذنبا لستُ محصيَه ** ربَّ العباد إليه الوجهُ والعملُ[١]

أي: إليه أوجه العمل، وعلى هذا فالمراد بوجه الله في الآية ما وجه إليه من الأعمال[٢].

قال ابن عطية: "ومنه قول القائل: أردت بفعلي وجه الله - تعالى -، ومنه قوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[٣]"[٤].

وقد استدل شيخ الإسلام لهذا القول أيضا بدليلين تقدما في كلامه وهما:

١ - أن سياق الآية يدل عليه؛ فإنه تعالى لما نهى عن الإشراك به ذكر أن كل عمل خالطه الشرك فهو باطل، وإنما يبقى الخالص لوجهه الكريم.

٢ - اسم الوجه في الكتاب والسنة، إنما يذكر في سياق العبادة له، والعمل له، والتوجه إليه، وعلى هذا فالراجح من الأقوال ما وافق استعمالَ القرآن و معهودَه[٥].

القول الثاني: أن معنى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ إلا هو أو إلا ذاته، ويروى عن مجاهد[٦]، والضحاك[٧]، واختاره

(١) هذا البيت لا يعرف قائله، انظر خزانة الأدب ١١/٣.
(٢) انظر تفسير ابن جرير ١١٩/١٠، والوسيط للواحدي ٤١١/٣.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٥٢.
(٤) تفسيره ١٩٨/١٢.
(٥) انظر: قواعد الترجيح ١٧٢/١.
(٦) تفسير الثعلبي ٢٦٧/٧ وقد ذكره بلا إسناد، ولعل القول الأول عنه أصح.
(٧) أورده عنه الماوردي ٢٧٣/٤، واختاره الفراء ٣١٤/٢، والزجاج ١٥٨/٤، والبيضاوي ٢٠٢/٢، والشوكاني ٢٦٤/٤، والألوسي ١٣٠/٢٠، وابن عاشور ١٩٧/٢٠.

أبو عبيدة[١] [٢].

قال البقاعي[٣]: "ولعله عبر عن الذات بالوجه ليشمل ما قصد به من العمل الصالح مع ما هو معروف من تسويغه لذلك بكونه أشرف الجملة، وبكون النظر إليه هو الحامل على الطاعة بالاستحياء وما في معناه"[٤].

وقد ذهب ابن كثير إلى أن الآية يمكن أن تحمل على المعنيين الأول والثاني حيث قال: "وهذا القول - إلا ما أريد به وجهه - لا ينافي القول الأول - إلا إياه - فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله - تعالى - من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته — تعالى وتقدس - فإنه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء"[٥].

وتعقبه القاسمي بقوله: "وفيه بعد وتكلف يذهب رونق النظم، وماء الفصاحة، لاسيما وآي التنْزيل يفسر بعضها بعضاً، والآية الثانية التي ذكرناها[٦]

---

(١) هو أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى البصري، مولى بني تيم، من كبار علماء العربية، له مجاز القرآن، وغريب الحديث، توفي عام ٢١٠هـ وقيل: غير ذلك. انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢٢٦/٢، وتاريخ بغداد ٢٥٢/١٣.

(٢) مجاز القرآن ١١٢/٢.

(٣) هو إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط بن علي بن أبي بكر البقاعي، أبو الحسن، برهان الدين، مؤرخ أديب، ولد سنة ٨٠٩هـ، وتوفي بدمشق سنة ٨٨٥هـ، من مؤلفاته: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور. انظر: الضوء اللامع ١٠١/١، وطبقات المفسرين للأدنه وي ص٣٤٨.

(٤) تفسيره نظم الدرر ٣٨٢/١٤، وانظر: تفسير الألوسي١٣٠/٢٠.

(٥) تفسير ابن كثير ٤١٤/٣.

(٦) وهي قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ سورة الرحمن: الآيتان ٢٦ — ٢٧.

بمعنى هذه، وتلك لا تحتمل ذاك المعنى، فكذا هذه"[١].

القول الثالث: أن المراد بالوجه في الآية هو صفة من الصفات الذاتية الثابتة لله سبحانه، فتثبت لله تعالى على وجه يليق بجلاله وعظمته، مع التنْزيه التام عن مشابهة المخلوقين، حملاً للآية على ظاهرها المتبادر منها[٢]، وهو اختيار الشنقيطي[٣] وابن عثيمين[٤].

القول الرابع: أن معنى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ إلا ملكه[٥].

القول الخامس: أن معنى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ إلا العلماء؛ فإن علمهم باقٍ[٦].

القول السادس: أن معنى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ إلا جاهه كما يقال: لفلان وجه في الناس، أي: جاه[٧].

وهذه الأقوال الثلاثة الأخيرة ظاهر ضعفُها.

والراجح – والله تعالى أعلم – هو القول الأول، لثبوته عن السلف، وقوة أدلته.

---

(١) تفسير القاسمي ١٣/١٣٤.

(٢) انظر: تفسير الشنقيطي ٧/٤٤٣، وشرح الواسطية للعثيمين ١/٢٨٧.

(٣) تفسيره ٤/٢٦٤.

(٤) شرح العقيدة الواسطية ١/٢٨٦.

(٥) ذكره البخاري في صحيحه ٨/٦٤١ كتاب التفسير، تفسير سورة القصص، و السمرقندي ٢/٥٢٩، والماوردي ٤/٢٧٣، والبغوي ٣/٤٥٩ وغيرهم.

(٦) ذكره الماوردي ٤/٢٧٣.

(٧) ذكره الماوردي ٤/٢٧٣، والقرطبي ١٣/٢١٣.

سورة العنكبوت: الآية ٤٥

قال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[1].

رجح شيخ الإسلام أن معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾ أن ذكر الله في الصلاة أكبر من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال -رحمه الله- عند هذه الآية: "ولما كانت الصلاة متضمنة لذكر الله - تعالى - الذي هو مطلوب لذاته، والنهي عن الشر الذي هو مطلوب لغيره قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾، أي: ذكر الله الذي في الصلاة أكبر من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ وليس المراد أن ذكر الله خارج الصلاة أفضل من الصلاة وما فيها من ذكر الله؛ فإن هذا خلاف الإجماع. ولما كان ذكر الله هو مقصود الصلاة، قال أبو الدرداء: ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة ولو كنتَ في السوق.

ولما كان ذكر الله يعم هذا كله قالوا: إن مجالس الحلال والحرام ونحو ذلك مما فيه ذكر أمر الله ونهيه ووعده ووعيده ونحو ذلك هي من مجالس الذكر"[2].

وقال - رحمه الله -: "وقوله: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾ بيان لما فيها من

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٣٢/٣٢.

المنفعة والمصلحة، أي: ذكر الله الذي فيها أكبر من كونها ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإن هذا هو المقصود لنفسه كما قال: ﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[1]، والأول تابع، فهذه المنفعة والمصلحة أعظم من دفع تلك المفسدة؛ ولهذا كان المؤمن الفاسق يؤول أمره إلى الرحمة، والمنافق المتعبد أمره صائر إلى الشقاء؛ فإن الإيمان بالله ورسوله هو جماع السعادة وأصلها. ومن ظن أن المعنى: ولذكر الله أكبر من الصلاة فقد أخطأ؛ فإن الصلاة أفضل من الذكر المجرد بالنص والإجماع.

والصلاة ذكر الله، لكنها ذكر على أكمل الوجوه، فكيف يفضل ذكرُ الله المطلق على أفضل أنواعه؟ ومثال ذلك قوله ﷺ: "عليكم بقيام الليل فإنه قربة إلى ربكم؛ ودأْب الصالحين قلبكم ومنهاة عن الإثم؛ ومكفرة للسيئات ومَطْرَدة لداعي الحسد"[2]، فبين ما فيه من المصلحة بالقرب إلى الله، وموافقة الصالحين ومن دفع المفسدة بالنهي عن المستقبل من السيئات، والتكفير للماضي منها وهو نظير هذه الآية"[3].

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ على

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٩.

(٢) أخرجه الترمذي ٥/٥١٦ ح٣٥٤٩، كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، من حديث بلال رضي الله عنه، وقال: "هذا حديث غريب"، ولفظه: "ومطردة للداء عن الجسد"، وأخرجه الحاكم ١/٣٠٨ عن أبي أمامة رضي الله عنه وصححه الذهبي، وحسنه الألباني في إرواء الغليل ٢/٢٠٠.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٠/١٩٣، وانظر: ١٠/١٨٨ و١٥/٣٤٤، والفتاوى الكبرى ٢/١٨، ٣٨٣.

خمسة أقوال:

القول الأول: أن المعنى: ولذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه؛ وبه قال ابن مسعود، وابن عباس، وسلمان الفارسي، وأبو الدرداء ﷺ، ومجاهد، وعكرمة، وعطية[١]، وأبو قرة[٢]، وشعبة[٣]، والحسن[٤].

وقد روي هذا التفسير مرفوعاً إلى النبي ﷺ[٥]، واختار هذا القول ابن جرير[٦].

القول الثاني: أن المعنى: ولذكر الله أفضل من كل شيء سواه؛ وهو قول أبي الدرداء، وسلمان – رضي الله عنهما –[٧]، وقتادة[٨]، وابن زيد[٩].

واستدل أصحاب هذا القول بالأحاديث الدالة على أن الذكر أفضل

---

(١) هو عطية بن سعد بن جُنَادة العوفي الجَدَلي القيسي الكوفي، صدوق يخطئ كثيراً، توفي بالكوفة سنة ١١١هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٢٢٤/٧، والتقريب ص٣٩٣.

(٢) هو موسى بن طارق اليماني الزبيدي، عالم بالسنن والآثار، قاضي زبيد، له كتاب السنن، توفي سنة ٢٠٣هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٤٦/٩، وتهذيب التهذيب ٣٤٩/١٠.

(٣) أخرجه عنهم ابن جرير ١٤٨/١٠، وأخرجه عن ابن عباس، ومجاهد؛ ابن أبي حاتم ٣٠٦٨/٩.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٨٠/٥ وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) أخرجه الثعلبي ٢٨١/٧ عن عمر مرفوعاً، وذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لابن السني وابن مردويه، والديلمي ٢٨٠/٥، وسنده ضعيف.

(٦) تفسيره ١٤٨/١٠.

(٧) وقد رُوي عنهما القول الأول، قال الألوسي: "ولعل ذلك إحدى روايتين عنهما"تفسيره ١٦٥/٢٠.

(٨) تفسير ابن جرير ١٤٧/١٠، واختار هذا القول ابن عطية ٢٢٧/١٢.

(٩) ذكره عنه ابن عطية ٢٢٧/١٢.

الأعمال[١] ومنها:

حديث أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له جُمْدان، فقال: "سيروا، هذا جمدان سبق المفرِّدون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات"[٢].

وحديث أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله تعالى"[٣].

وحديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول ﷺ سئل: "أي العباد أفضل درجةً عند الله يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات، قلت: يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون لله أفضل منه درجة"[٤].

ويناقش هذا الاستدلال بأنه قد ثبت تفضيل بعض الأعمال على الذكر[٥].

---

(١) انظر: تفسير البغوي ٤٦٩/٣، والدر المنثور ٢٨١/٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٦٢/٤ ح٢٦٧٦، كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى.

(٣) أخرجه الترمذي ٤٢٨/٥ ح٣٣٧٧، كتاب الدعوات، باب: ٦، وابن ماجه ١٢٤٥/٢ ح٣٧٩٠، كتاب الأدب، باب فضل الذكر، وأحمد ٦ / ٤٤٧، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ١٣٩/٣.

(٤) أخرجه الترمذي ٤٢٨/٥ ح٣٣٧٦، كتاب الدعوات، باب: ٥، وقال: "هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث دارج"، وأخرجه أحمد في المسند ٧٥/٣، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص٤٤٢ ح٦٧٠.

(٥) كما في حديث ابن مسعود ﷺ قال: "سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة ==

وبأنه قد يراد بالذكر جميع الأعمال الصالحة[١].

وروى عن ابن عباس أنها محتملة للوجهين جميعاً؛ أي القولين الأول والثاني حيث قال ﷺ عند هذه الآية: "لها وجهان: ذكر الله أكبر مما سواه، وذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه"[٢].

القول الثالث: أن معنى الآية: ولذكر الله في الصلاة أكبر مما نهتك عنه الصلاة من الفحشاء والمنكر؛ وبه قال ابن عون[٣] [٤]، وهو اختيار شيخ الإسلام كما تقدم.

القول الرابع: أن المعنى: ولذكر الله العبد – ما دام في صلاته – أكبر من الصلاة؛ وبه قال أبو مالك[٥].

القول الخامس: أن المعنى وللصلاة أكبر من غيرها من الطاعات فالمراد

==

لوقتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قال: قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله". أخرجه البخاري ١٣/٢ ح٥٢٧، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، ومسلم ٨٩/١ ح١٣٧، في كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال.

(١) كما قالت أم الدرداء – رضي الله عنها –: "﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فإن صليت فهو من ذكر الله، وإن صمت فهو من ذكر الله، وكل خير تعمله فهو من ذكر الله، وكل شر تجنّبته فهو من ذكر الله، وأفضل من ذلك تسبيح الله"أخرجه ابن جرير ١٠/ ١٤٧.

(٢) تفسير ابن جرير ١٤٨/١٠.

(٣) هو الإمام الحافظ أبو عَوْن بن أَرْطَبان المزني مولاهم البصري، ثقة ثبت، أخرج له أصحاب الكتب الستة، توفي عام ١٥٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٦٤/٦، والتقريب ص٣١٧.

(٤) تفسير ابن جرير ١٤٨/١٠.

(٥) تفسير ابن جرير ١٤٨/١٠.

بالذكر هنا الصلاة، قال الزمخشري: "وسماها بذكر الله كما قال: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[١] وإنما قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ ليستقل بالتعليل كأنه قال: وللصلاة أكبر لأنها ذكر الله"[٢].

وقال ابن عاشور: "وقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يجوز أن يكون عطف علة على علة، ويكون المراد بذكر الله هو الصلاة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: صلاة الجمعة، ويكون العدول عن لفظ الصلاة الذي هو كالاسم لها إلى التعبير عنها بطريقة الإضافة للإيماء إلى تعليل أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أي: إنما كانت ناهية عن الفحشاء والمنكر؛ لأنها ذكر الله، وذكر الله أمر كبير، فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة مقصود به قوة الوصف"[٣].

وهذا القول هو ظاهر اختيار السعدي[٤].

وهناك أقوال أخرى داخلة فيما سبق[٥].

والراجح – والله تعالى أعلم – هو القول الأول لأنه قول أكثر السلف.

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٩.

(٢) الكشاف ١٩٢/٣، وقال ابن جزي: ١٦١/٢: "وسماها ذكراً لأن الذكر أعظم ما فيها"، وانظر: تفسير الشوكاني ٣٨٧/٤.

(٣) تفسير ابن عاشور ٢٦٠/٢٠.

(٤) تفسيره ص٦٣٢.

(٥) انظر: تفسير السمرقندي ٤٥٠/٢، والماوردي ٢٨٥/٤، والقرطبي ٢٣١/١٣، وأبي حيان ١٥٠/٧.

سورة العنكبوت: الآية ٤٦

قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[1].

رجح شيخ الإسلام أن هذه الآية غير منسوخة، وأن مجادلة أهل الكتاب باقية.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "قال مجاهد: الذين ظلموا منهم: أهل الحرب، من لا عهد لهم المجادلة لهم بالسيف.

وفي رواية عنه قال: لا تقاتل إلا من قاتلك، و لم يعطك الجزية.

وفي رواية عنه أيضاً قال: من أدى منهم الجزية فلا تقولوا له إلا خيراً. وعن مجاهد: إلا بالتي هي أحسن، فإن قالوا شراً فقولوا خيراً.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[2]: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ليست منسوخة. ولكن عن قتادة: نسختها ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾[3]، ولا مجادلة أشد من السيف.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٦.

(٢) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العُمَري المدني، كان صاحب قرآن وتفسير، وهو ضعيف في الحديث، جمع تفسيراً في مجلد، وكتاباً في الناسخ والمنسوخ، توفي سنة ١٨٢هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٤٩/٨، وتقريب التهذيب ص٣٤٠.

(٣) سورة التوبة: الآية ٥.

والأول أصح؛ لأن هؤلاء من الذين ظلموا فلا نسخ"[١].

وقال – رحمه الله –: "ويزعم من يزعم من هؤلاء أن قوله: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ منسوخ بآية السيف، وهؤلاء أيضاً غالطون، فإن الله تعالى قد أخبر عن قوم نوح وإبراهيم بمجادلتهم للكفار،حتى قالوا: ﴿ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا ﴾[٢]، وقال عن قوم إبراهيم: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ ﴾، إلى قوله: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ ﴾[٣]، وذكر محاجة ابراهيم للكافر والقرآن فيه من مناظرة الكفار والاحتجاج عليهم ما فيه شفاء وكفاية، وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾، وقوله: ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[٤] ليس في القرآن ما ينسخهما، ولكن بعض الناس يظن أن من المجادلة ترك الجهاد بالسيف، وكل ما كان متضمناً لترك الجهاد المأمور به فهو منسوخ بآيات السيف، والجهاد والمجادلة قد تكون مع أهل الذمة والهدنة والأمان ومن لا يجوز قتاله بالسيف، وقد تكون في ابتداء الدعوة كما كان النبي ﷺ يجاهد الكفار بالقرآن، وقد تكون لبيان الحق وشفاء القلوب من الشبه مع من يطلب الاستهداء والبيان وبسط هذا له موضع آخر"[٥].

---

(١) الجواب الصحيح ١/٢٤١.

(٢) سورة هود: الآية ٣٢.

(٣) سورة الأنعام: الآيات ٨٠ – ٨٣.

(٤) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٥) النبوات ٢/٦٢٠.

الدراسة:

في هذه الآية ينهى الله – تعالى – عباده المؤمنين عن مجادلة أهل الكتاب – وهم اليهود والنصارى – إلا بالكلام اللَّين الجميل اللطيف؛ وذلك بدعوتهم إلى الله – تعالى – بعلم وبصيرة، ورد الباطل بالحجة والبرهان بأحسن أسلوب وأقرب طريق(١).

وقد اختلف المفسرون في المراد بالذين ظلموا، وهل هذه الآية منسوخة أم لا على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن الآية محكمة، والمراد بالذين ظلموا منهم هم أهل الحرب الذين أبوا الإسلام وإعطاءَ الجزية فهؤلاء يجادلون بالسيف؛ وهذا قول مجاهد(٢).

القول الثاني: أن الآية محكمة، والمراد بأهل الكتاب في الآية من آمن بالنبي ﷺ واتبعه، وذلك فيما يحدثون به عن كتبهم؛ وهذا قول ابن زيد(٣).

القول الثالث: أن هذه الآية نزلت قبل أن يؤمر النبي ﷺ بالقتال، ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾(٤)؛ وهذا قول

---

(١) تفسير ابن جرير ١٠/١٤٩، والسعدي ص٦٣٣.
(٢) تفسير ابن جرير ١٠/١٤٩، وابن أبي حاتم ٩/٣٠٦٩.
(٣) تفسير ابن جرير ١٠/١٥٠، وابن أبي حاتم ٩/٣٠٦٨.
(٤) سورة التوبة: الآية ٢٩.

قتادة[١]، فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو الجزية أو السيف.

والراجح – والله تعالى أعلم – هو القول الأول، وهو أن الآية محكمة غير منسوخة لعدم الدليل على نسخها، وأن المراد بالذين ظلموا هم أهل الحرب، واختاره ابن جرير[٢]، والنحاس[٣].

قال ابن جرير: "وأولى هذه الأقوال بالصواب، قول من قال: عني بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ إلا الذين امتنعوا عن أداء الجزية، ونصبوا دونها الحرب... وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال فيه بالصواب؛ لأن الله تعالى ذكره أذن للمؤمنين بجدال ظلمة أهل الكتاب بغير الذي هو أحسن، بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ فمعلوم إذ كان قد أذن لهم في جدالهم أن الذين لم يؤذن لهم في جدالهم إلا بالتي هي أحسن غير الذين أذن لهم بذلك فيهم، وأنهم غير المؤمن؛ لأن المؤمن منهم غير جائز جداله إلا في غير الحق؛ لأنه إذا جاء بغير الحق فقد صار في معنى الظلمة في الذين خالف فيه الحق، فإذا كان تبين ألا معنى لقول من قال: عنى بقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أهل الإيمان منهم، وكذلك لا معنى لقول من قال: أنزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال وزعم أنها منسوخة؛ لأنه لا خبر بذلك يقطع العذر، ولا دلالة على صحته من فطرة عقل.

وقد بيّنا في غير موضع من كتابنا أنه لا يجوز أن يحكم على حكم الله في

---

(١) تفسير ابن جرير ١٥٠/١٠، وابن أبي حاتم ٣٦٨/٩، واختاره الزجاج ١٧٠/٤، وابن عطية ٢٢٩/١٢، وابن جزي ١٦٠/٢.

(٢) تفسيره ١٥٠/١٠.

(٣) الناسخ والمنسوخ ٥٧٧/٢.

كتابه بأنه منسوخ إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل"[١].

وقال النحاس: "وقول مجاهد حسن لأن أحكام الله - عز وجل - لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر أو حجة من معقول"[٢].

(١) تفسير ابن جرير ١٠/١٥٠.
(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/٥٧٧.

سورة الروم: الآية ٣٠

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

هذه الآية فيها مسألتان:

الأولى: هل قوله تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أمر أو خبر؟

رجح شيخ الإسلام أنه خبر، حيث قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "هذه الآية فيها قولان:

أحدهما: أن معناها النهي كما تقدم عن ابن جرير أنه فسرها بالنهي؛ أي: لا تبدلوا دين الله الذي فطر عليه عباده، وهذا قول غير واحد من المفسرين الذين لم يذكروا غيره كالثعلبي والزمخشري.

والثاني: ما قاله إسحاق[2] وهو أنها خبر على ظاهرها، وأن خلق الله لا يبدله أحد، وظاهر اللفظ أنه خبر فلا يجعل نهياً بغير حجة، وهذا أصح، وحينئذ فيقال: المراد ما خلقهم عليه من الفطرة لا تُبَدَّل، فلا يخلقون على غير الفطرة"[3].

---

(١) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٢) هو الإمام إسْحاق بن إبراهيم بن مَخْلَد الحنظلي التميمي المروزي بن راهُويَه، ثقة، حافظ، فقيه مجتهد، مات سنة ٢٣٨هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٢١٦/١، والتقريب ص٩٩.

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٤٢٤/٨.

الدراسة:

أكثر المفسرين ذكروا القولين، و لم يرجحوا(١).

ومن المفسرين من اختار أن معناه النهي، والمعنى: لا تبدلوا دين الله(٢).

واختار ابن تيمية كما تقدم أن معناه الخبر أي: لا أحد يستطيع تبديل دين الله فيجعل المخلوق على غير ما فطره الله عليه، واختاره السعدي أيضاً(٣).

---

(١) انظر: تفسير أبي حيان ١٦٧/٧، وابن كثير ٤٢٢/٣، والشوكاني ٣١٤/٤، وابن عاشور ٩٣/٢١، وانظر: المفردات للراغب ص٢٩٧.

(٢) اقتصر عليه ابن جرير ١٨٣/١٠ حيث قال: "﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لدين الله، أي لا يصلح ذلك ولا ينبغي أن يفعل"، والثعلبي ٣٠١/٧ حيث قال: "﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لدين الله، أي لا يصلح ذلك ولا ينبغي أن يفعل، ظاهره نفي ومعناه نهي، وهذا قول أكثر العلماء والمفسرين"، وكذا ابن الجوزي ١٥١/٦ حيث قال: "لفظه النفي، ومعناه النهي"، وانظر البغوي ٤٨٣/٣، والزمخشري ٢٠٤/٣.

(٣) تفسير السعدي ص٦٤١. وقال القرطبي ٢٢/١٤: "أي: هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق ولا يحي الأمر على خلاف هذا بوجه؛ أي لا يشقى من خلقه سعيداً ولا يسعد من خلقه شقياً". وقال ابن كثير ٤٤٢/٣: "قال بعضهم: فمعناه لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها فتكون خبراً بمعنى الطلب كقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ وهو معنىً حسن صحيح، وقال آخرون: هو خبر على بابه، ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك". وقال الألوسي ٤٠/٢١: "والمعنى: لا صحة ولا استقامة لتبديل فطرة الله تعالى بالإخلال بموجبها وعدم ترتيب مقتضاها عليها باتباع الهوى وقبول وسوسة الشياطين". وقال ابن عاشور: "فمعنى ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أنه الدين الحنيف الذي ليس فيه تبديل لخلق الله خلاف دين أهل الشرك، قال تعالى عن الشيطان: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ ويجوز أن تكون جملة: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ معترضة لإفادة النهي عن تغيير خلق الله فيما أودعه الفطرة، فتكون ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ خبراً بمعنى النهي على وجه المبالغة كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾". تفسير التحرير والتنوير ٩٣/٢١.

والراجح – والله تعالى أعلم – ما ذهب إليه شيخ الإسلام من أن معنى الآية الخبر؛ لأن ظاهر الآية وسياقها يدل على هذا حيث أمر – سبحانه وتعالى – بلزوم الدين الذي فطر الناس عليه، وهو دين الإسلام والثبات عليه، ثم بيّن أنه لا أحد يستطيع أن يغير هذه الفطرة التي يولد الناس عليها.

المسألة الثانية: معنى قوله تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ على قولين:

الأول: أن المعنى لا تبديل لدين الله.

والثاني: إخصاء البهائم، وقد اختار شيخ الإسلام أن لفظ الآية يدل على المعنيين.

قال – رحمه الله – بعد أن ذكر القولين: "قلت: مجاهد وعكرمة رُوِيَ عنهما القولان؛ إذ لا منافاة بينهما كما قال تعالى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾[1]، فتغيير ما خلق الله عليه عباده من الدين تغيير لخلقه، والخصاء وقطع الأذن أيضاً تغيير لخلقه.

ولهذا شبه النبي ﷺ أحدهما بالآخر في قوله: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصِّرانه ويمجِّسانه، كما تَنْتُج البهيمة بهيمةً جَمْعَاء هل تحسون فيها من جدعاء؟"[2] [3]، فأولئك يغيرون الدين، وهؤلاء يغيرون الصورة بالجدع

---

(١) سورة النساء: الآية ١١٩.

(٢) أي كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء: مجتمعة الأعضاء سليمة من كل نقص، لا يوجد منها جدعاء وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء، وإنما يحصل النقص بعد ولادتها. انظر: فتح الباري ٣١٦/٣.

(٣) أخرجه البخاري ٣١٢/٣، ح١٣٨٥، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين.

والخصاء، هذا تغيير لما خلقت عليه نفسه، وهذا تغيير ما خُلق عليه بَدَنهُ"[١].

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ على قولين:

القول الأول: أن معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لا تبديل لدين الله؛ وبه قال ابن عباس - رضي الله عنهما -[٢]، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن زيد[٣].

قال الزجاج: "أكثر ما جاء في التفسير أن معناه لا تبديل لدين الله، وما بعده يدل عليه، وهو قوله - عز وجل -: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون بحقيقة ذلك"[٤].

وقال البخاري في صحيحه: "﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لدين الله، ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٥] دين الأولين[٦].

القول الثاني: أن معنى الآية: لا تبديل لخلق الله من البهائم بأن يخصى الفحول منها، وبه قال ابن عباس - رضي الله عنهما - ومجاهد، وعكرمة[٧].

---

(١) درء التعارض ٣٧٧/٨.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٣٠٩١/٩.

(٣) أخرجها عنهم ابن جرير ١٨٣/١٠ – ١٨٤.

(٤) معاني القرآن للزجاج ١٨٥/٤، واقتصر عليه ابن كثير ٤٤٢/٣، والسعدي ص٦٤١.

(٥) سورة الشعراء: الآية ١٣٧.

(٦) صحيح البخاري ٦٥١/٨، كتاب التفسير، سورة العنكبوت، وانظر: الوجوه والنظائر للقرعاوي ص٣١٦.

(٧) تفسير ابن جرير ١٨٤/١٠، واستغربه الألوسي ٤١/٢١.

ويلاحظ أن هؤلاء قد روي عنهم القول الأول، فيوجه بما ذكره شيخ الإسلام من أنه لا منافاة بين القولين، حيث إن الخصاء من تبديل دين الله[١].

والراجح – والله تعالى أعلم – ما ذهب إليه شيخ الإسلام من أنه لا منافاة بين القولين، فيدخل فيها تغيير دين الله، ويدخل فيها الخصاء؛ إذ الخصاء من تغيير دين الله.

(١) وبنحو ما قاله شيخ الإسلام من عدم المنافاة بين القولين قال ابن القيم، انظر شفاء العليل ص ٢٨٦.

سورة الروم: الآية ٤٩

قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾[١].

رجح شيخ الإسلام أن قوله تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ ليس تكراراً وتأكيداً لقوله: ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم ﴾.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "فهي من أشكل ما أُورد، ومما أعضل على الناس فَهْمُها، فقال كثير من أهل الإعراب والتفسير: إنه على التكرار المحض والتأكيد"، ثم ذكر قول الزمخشري في الآية وأنه من باب التأكيد ورد عليه ثم قال: "وأما قوله: ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ فليس من التكرار بل تحته معنى دقيق، والمعنى فيه: وإن كانوا من قبل أن ينَزل عليهم الوَدْقُ، من قبل هذا النُّزول لمبلسين؛ فهنا قبليتان: قبلية لنُزوله مطلقاً، وقبلية لذلك النُزول المعين ألاَّ يكون متقدماً على ذلك الوقت، فيئسوا قبل نزوله يأسين: ياساً لعدمه مرئياً، ويأساً لتأخره عن وقته؛ فقبل الأولى ظرف لليأس، وقبل الثانية ظرف المجيء والإنزال.

ففي الآية ظرفان معمولان وفعلان مختلفان عاملان فيهما، وهما الإنزال والإبلاس، فأحد الظرفين متعلق بالإبلاس، والثاني متعلق بالنُّزول، وتمثيل هذا أن تقول: إذا كنت معتاداً للعطاء من شخص فتأخر عن ذلك الوقت ثم أتاك به قد كنت آيساً"[٢].

---

(١) سورة الروم: الآية ٤٩.

(٢) مجموع الفتاوى ١٥/٢٧٨.

الدراسة:

اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ هل هي تكرير وتأكيد لما قبلها أم لا، على قولين:

القول الأول: ذهب عامة المفسرين، والنحويين إلى أن قوله تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ تكرير وتأكيد لقوله: ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾، وممن اختاره ابن جرير[١]، والأخفش[٢]، والزجاج[٣]، والزمخشري[٤]، والواحدي[٥]، وأبو حيان[٦]، والألوسي[٧]، وابن عاشور[٨].

قال الزمخشري: "﴿ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ من باب التكرير والتوكيد كقوله تعالى: ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ ﴾[٩]، ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبَعُد فاستحكم يأسهم، وتمادى إبلاسهم، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك"[١٠].

---

(١) تفسيره ١٠/١٩٦.
(٢) معاني القرآن ٢/٤٧٦.
(٣) معاني القرآن ٤/١٨٩.
(٤) تفسيره ٣/٢٠٧.
(٥) تفسيره ٣/٤٣٧.
(٦) تفسيره ٧/١٧٤.
(٧) تفسيره ٢١/٥٣.
(٨) تفسيره ٢١/١٢٢.
(٩) سورة الحشر: الآية ١٧.
(١٠) تفسير الزمخشري ٣/٢٠٧.

القول الثاني: ذهب قطرب[١] وابن عطية،وأبو البقاء إلى أنه ليس في الآية تكرار محض، وهو ما اختاره شيخ الإسلام.

قال قطرب: "وإن كانوا من قبل التنْزيل من قبل المطر"[٢] فجعل (قبل) الأولى للتنْزيل، و(قبل) الثانية للمطر".

قال الزجاج معقباً عليه: "والقول كما قالوا -يعني أصحاب القول الأول- لأن تنْزيل المطر بمعنى المطر لا يكون إلا بتنْزيل"[٣].

وقال ابن عطية: "وقوله تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ تأكيد أفاد سرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار وذلك أن قوله: ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم ﴾ يحتمل الفسحة في الزمان، أي: من قبل بكثير كالأيام ونحوه، فجاء قوله: ﴿ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ بمعنى أن ذلك متصل بالمطر فهو تأكيد مفيد"[٤].

ولم يرتض أبو حيان ما ذكره ابن عطية من فائدة التأكيد. [٥]

وقال أبو البقاء العكبري: "والأولى أن تكون الهاء فيها — ﴿ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ — للسحاب أو الريح أو للكِسَفِ[٦]، والمعنى: وإن كانوا من قبل نزول المطر من

---

(١) هو محمد بن المستنير بن أحمد، أبو علي، الشهير بقطرب، نحوي عالم بالأدب واللغة، بصري من الموالي، أول من وضع المثلث في اللغة، من مؤلفاته: معاني القرآن، والأضداد. انظر: تاريخ بغداد ٢٩٨/٣ ترجمة رقم (١٣٨٦)، شذرات الذهب ١٥/٢.

(٢) الدر المصون ٥٢/٩.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١٨٩/٤.

(٤) تفسير ابن عطية ٢٦٩/١٢، واختار هذا التوجيه الألوسي ٥٣/٢١.

(٥) تفسير أبي حيان ١٧٤/٧، وانظر الدر المصون ٥٢/٩.

(٦) جمع كِسْفَة: وهي القطعة من السحاب. انظر: معاني القرآن للزجاج ١٨٩/٤، والمفردات ص٧١١.

قبل السحاب أو الريح، فتتعلق ﴿ مِّن ﴾ بـ﴿ يُنَزَّلَ ﴾"[١].

وتقدم توجيه قول شيخ الإسلام.

والراجح – والله تعالى أعلم – ما ذهب إليه الجمهور من أن قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ توكيد لما قبله، وذلك لأنه هو الظاهر، ولأن توجيهات أصحاب **القول الثاني**: لا تخلو من التكلف.

قال الشوكاني بعد أن ذكر القول الثاني وتوجيهات أهله: "والراجح الأول، وما بعده من هذه الوجوه كلها ففي غاية التكلف والتعسُّف"[٢].

(١) إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن ص٤٣٠، وفي توجيه هذا القول أقوال أخرى، انظر: الدر المصون ٥٢/٩، وتفسير الألوسي ٥٣/٢١.

(٢) تفسير الشوكاني ٣٢٣/٤، وانظر: تفسير الألوسي ٥٣/٢١.

سورة الأحزاب: الآية ٣٣

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن أزواجه ﷺ ورضي الله عنهن داخلات في أهل بيته.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "وقد تنازع العلماء: هل أزواجه من آله؟ على قولين هما روايتان عن أحمد، أصحها أنهن من آله، وأهل بيته، كما دلَّ على ذلك ما في الصحيحين من قوله: "اللهم صلِّ على محمد وعلى أزواجه وذريته"وهذا مبسوط في موضع آخر"[٢].

وقال – رحمه الله –: "وللناس في ذلك – يعني تفسير الآل – قولان مشهوران: أحدهما أنهم أهل بيته الذين حرموا الصدقة، وهذا هو المنصوص عن الشافعي وأحمد، وعلى هذا ففي تحريم الصدقة على أزواجه وكونهم من أهل بيته روايتان عن أحمد: إحداهما: لسن من أهل بيته وهو قول زيد بن أرقم الذي رواه مسلم[٣] في صحيحه عنه.

والثانية: هن من أهل بيته لهذا الحديث فإنه قال: "وعلى أزواجه وذريته"وقوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ وقوله في قصة إبراهيم: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.
(٢) منهاج السنة ٢٤/٤.
(٣) يأتي تخريجه

أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ ﴾[١]، وقد دخلت سارة، ولأنه استثنى امرأة لوط من آله فدل على دخولها في الآل، وحديث الكساء يدل على أن علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً أحق بالدخول في أهل البيت من غيرهم، كما أن قوله في المسجد المؤسس على التقوى: "هو مسجدي هذا"يدل على أنه أحق بذلك وأن مسجد قباء أيضا مؤسس على التقوى؛ كما دل عليه نزول الآية وسياقها وكما أن أزواجه داخلات في آله وأهل بيته، كما دل عليه نزول الآية وسياقها، وقد تبين أن دخول أزواجه في آل بيته أصح"[٢].

الدراسة:

قال ابن جرير مبيِّناً معنى الآية: "إنما يريد الله ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت محمد ويطهِّركم من الدَّنس الذي يكون في أهل معاصي الله تطهيراً"[٣].

واختلف المفسرون في المراد بأهل البيت في الآية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن المراد بهم رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم، ونسبه ابن عطية للجمهور[٤]، و من أدلة هذا القول:

حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "نزلت هذه الآية

---

(١) سورة هود: الآية ٧٣.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٢/٤٦٠ – ٤٦١.

(٣) تفسيره ١٩/١٠١ ط التركي، وانظر: زاد المسير ٦/١٩٨.

(٤) تفسيره ١٣/٧٢.

في خمسة: فيَّ، وفي علي ﷺ، وحسن ﷺ وفاطمة رضي الله عنها: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾"[١].

وحديث عائشة رضي الله عنها، قال: "خرج النبي ﷺ غداة وعليه مِرط مرحَّل[٢]، من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين، فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾"[٣].

وحديث أم سلمة، قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فجلّل عليهم كساءً خيبريًّا، فقال: "اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم اذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً"، قالت أم سلمة: ألستُ منهم؟ قال: "أنتِ إلى خير"[٤].

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٠٢/١٩ ط التركي، وابن أبي حاتم كما في الدر ٣٧٧/٥، وأخرجه الطبراني في الأوسط ٨٨/٤ موقوفاً على أبي سعيد، وضعّفه الهيثمي في المجمع ٩١/٧، وانظر: الألوسي ١٥/٢١، ١٧.

(٢) المِرْط: كساء، وجمعه مروط، والمرحَّل: المُوشَّى المنقوش عليه صور رحال الإبل. النهاية ٣١٥/٤ – ٣١٩.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٨٣/٤ ح٢٤٢٤، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بيت النبي ﷺ، وأبو داود ح٤٠٣٢، وابن جرير ١٠٢/١٩ [ط التركي]، وابن أبي حاتم كما في الدر ٣٧٧/٥.

(٤) أخرجه ابن جرير ١٠٥/١٩ [ط التركي]، والنحاس في المعاني ٣٤٨/٥، وأحمد ٢٩٢/٦، والترمذي ٣٢٨/٥ ح٣٢٠٥، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأحزاب، ويأتي الجواب عنه.

ويناقش بأن هذه الأحاديث لا تمنع دخول أزواجه في آل البيت، بل تـــدلُّ على أن هؤلاء المذكورين أولى من يستحق هذا الوصف كما أشار إلى ذلـــك الشيخ[١].

القول الثاني: أن المراد بأهل البيت في الآية أزواج النبي ﷺ خاصَّة؛ وبه قال عكرمة، فقد رُوي عنه أنه كان ينادي في السوق: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ قال: "نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة"[٢]، وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -[٣]، وعـــروة بـــن الزبير[٤].

قال ابن كثير بعد أن أورد قول ابن عباس وعكرمة: "فإن كان المراد أنهـــنّ كنَّ سببَ النُّزول دون غيرهن فصحيح، وإن أُريد أنهن المراد فقط دون غيرهن، ففي هذا نظر، فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعمُّ مـــن ذلـــك"ثم ذكرها[٥].

وقال أبو حيان عن قول ابن عباس: "فلعله لا يصح"[٦].

---

(١) وانظر: قواعد التفسير ٨٥٧/٢.

(٢) أخرجه ابن جرير ١٠٨/١٩ ط التركي، وعزاه في الدر ٣٧٦/٥ أيضاً لابن مردويه.

(٣) ذكره في الدر ٣٧٦/٥، وعزاه لابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عكرمة، وأخرجـــه ابـــن مردويه من طريق سعيد بن جبير عنه.

(٤) ذكره في الدر ٣٧٦/٥، وعزاه لابن سعد.

(٥) تفسيره ٤٩١/٣ - ٤٩٢.

(٦) تفسيره ٢٢٤/٧.

وقال الألوسي: "وجاء في بعض الروايات أنه – عليه الصلاة والسلام – ضمَّ إلى أهل الكساء علياً وفاطمة والحسنين ﷺ، و بقيّة بناته وأقاربه وأزواجه، وصح عن أم سلمة في بعض آخر أنها قالت: "فقلت: يارسول الله أما أنا من أهل البيت؟ فقال: بلى إن شاء الله تعالى"، وفي بعض آخر أيضاً أنها قالت له ﷺ: "ألست من أهلك؟ قال: بلى"، وأنه عليه الصلاة والسلام أدخلها الكساء بعد ما قضى دعاءه لهم، وقد تكرر كما أشار إليه المحب الطبري[1] منه ﷺ الجمع وقول: "هؤلاء أهل بيتي"والدعاء في بيت أم سلمة وبيت فاطمة رضي الله تعالى عنهما وغيرهما.

وبه جمع بين أختلاف الروايات في هيئة الاجتماع وما جل ﷺ به المجتمعين، وما دعا به لهم، وما أجاب به أم سلمة، وعدم إدخالها في بعض المرات تحت الكساء ليس لأنها ليست من أهل البيت أصلاً، بل لظهور أنها منهم حيث كانت من الأزواج اللاتي يقتضي سياق الآية وسباقها دخولهن فيهم، بخلاف من أدخلوا تحته رضي الله تعالى عنهم؛ فإنه عليه الصلاة والسلام لو لم يدخلهم ويقل ما قال لتوهم عدم دخولهم في الآية لعدم اقتضاء سياقها وسباقها ذلك"[2].

---

(١) هو الإمام المحدث فقيه الحرم، أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر المكي الشافعي، شيخ الشافعية ومحدث الحجاز، ولد سنة ٦١٥هـ، كان إماماً زاهداً صالحاً كبير الشأن، من مؤلفاته: الأحكام الكبرى، توفي سنة ٦٩٤هـ. انظر: تذكره الحفاظ ١٤٧٤/٤، وطبقات الحفاظ ٥١٤/٦.

(٢) تفسيره روح المعاني ١٥/٢٢.

ومن أدلة هذا القول أن سياق الآيات متعلق بأزواج النبي ﷺ[١]، ولأنهن أهل بيته[٢].

واعتُرض على هذا القول بأن جمع المؤنث بالنون، فكيف قال: ﴿عَنكُمُ﴾، و﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ بالميم[٣]، وأُجيب: بأن رسول الله ﷺ فيهنَّ فغُلِّب المذكَّر[٤].

وقيل باعتبار لفظ الأهل، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[٥].

القول الثالث: أنهم أهل رسول الله ﷺ وأزواجه؛ وبه قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه[٦] والضحاك[٧]، وزيد بن أرقم رضي الله عنه، فقد سأله رجل فقال: "أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرم الصدقة بعده، قال ومن هم: قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كل هؤلاء حُرم الصدقة؟ قال: نعم"[٨].

---

(١) استدل بذلك كثير من المفسرين، وانظر: الواحدي في الوسيط ٤/٤٧٠.

(٢) انظر: تفسير البغوي ٣/٥٢٨، وقال ابن عطية ١٣/٧٢: "وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبي ﷺ".

(٣) ضعّفه بذلك ابن جزي ٢/١٨٨.

(٤) ذكره النحاس في الإعراب ٣/٣١٤، وابن الجوزي ٦/١٩٨، وأبو حيان ٧/٢٢٤ وغيرهم.

(٥) ذكره الشوكاني ٤/٣٩٢.

(٦) أخرجه الواحدي ٣/٤٧٠.

(٧) ذكره عنه ابن الجوزي ٦/١٩٨.

(٨) أخرجه مسلم ٤/١٨٧٣ ح٢٤٠٨، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

واستدل شيخ الإسلام – كما تقدم – بقوله – تعالى- في قصة إبراهيم: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[١]، وقد دخلت سارة، ولأنه استثنى امرأة لوط من آله فدل على دخولها في الآل،وبحديث أبي حميد الساعدي ﷺ أنهم قالوا: "يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: قولوا: اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد"[٢].

والراجح – والله تعالى أعلم – القول الثالث، لورود النصوص الصريحة في ذلك، وأن أزواجه رضي الله عنهن داخلات في أهل بيته، كما في حديث أبي حميد، وكما يدل عليه سياق الآيات، فإن هذه الآية واقعة في أثناء الحديث عنهن رضي الله عنهن، فما قبلها وما بعدها من الآيات كلها خطاب لهن، وهذا ما اختاره شيخ الإسلام كما تقدم، وهو اختيار السمعاني[٣]، والزمخشري[٤]، وابن عطية، وقال: "والذي يظهر أن زوجاته لا يخرجن عن ذلك ألبتة، فأهل البيت: زوجاته، وبنته، وبنوها، وزوجها، وهذه الآية تقضي أن الزوجات من أهل البيت لأن الآية فيهن، والمخاطبة لهن، وأجاب عن حديث أم سلمة وقول النبي ﷺ لها: "وأنت إلى خير"، بأن البيت هنا يراد به بيت النَّسب، فيكون

---

(١) سورة هود: الآية ٧٣.

(٢) أخرجه البخاري ٤٩٣/٦ ح٣٣٦٩، كتاب الأنبياء، باب حدثنا، وهذا لفظه، ومسلم ٣٠٦/١ ح٤٠٧، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ.

(٣) تفسيره ٢٨١/٤.

(٤) الكشاف ٢٣٦/٣.

العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم، وروي نحوه عن زيد بن أرقم ﷺ"[١].

واختاره أيضاً الرازي[٢]، والقرطبي ورجحه بالسياق[٣]، وابن جزي[٤] وقال: "هم أزواجه وذريته وأقاربه"، وأبو حيان[٥]، وأبو السعود[٦]، والألوسي كما تقدم، وكلهم رجح دخولهن بالسياق.

وقال ابن كثير بعد أن أورد الآية: "هذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النُّزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح"[٧].

واختاره الشوكاني وقال: "وقد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات ولعلي وفاطمة والحسن والحسين، أما الزوجات فلكونهن المرادات فى سياق هذه الآيات كما قدمنا، ولكونهن الساكنات فى بيوته ﷺ النازلات فى منازله ويعضد ذلك ما تقدم عن ابن عباس وغيره، وأما دخول علي وفاطمة والحسن والحسين فلكونهم قرابته وأهل بيته فى النسب ويعضد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النُّزول، فمن جعل الآية خاصة

---

(١) تفسيره ٧٣/١٣.
(٢) تفسيره ٢١٠/٢٥.
(٣) تفسيره ١١٩/١٤.
(٤) تفسيره ١٨٨/٢.
(٥) تفسيره ٢٢٤/٧.
(٦) تفسيره ٧/ ١٠٣.
(٧) تفسيره ٤٩١/٣، وانظر: أضواء البيان ٥٧٧/٦، وقواعد التفسير ٥٤/١.

بأحد الفريقين فقد أعمل بعض ما يجب إعماله وأهمل مالا يجوز إهماله"[١].

واختاره الشنقيطي، واستدل بالسياق، وقال: "والتحقيق -إن شاء الله- أنهن داخلات في الآية، وإن كانت الآية تتناول غيرهن من أهل البيت"[٢].

(١) تفسيره ٤/٣٩٤.
(٢) أضواء البيان ٦/٥٧٧.

سورة الأحزاب: الآية ٣٤

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن معنى الحكمة في الآية السنة.

قال - رحمه الله - عند هذه الآية: "فآيات الله هي القرآن، إذ كان نفس القرآن يدل على أنه منَزل من الله، فهو علامة ودلالة على منَزله، ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ قال غير واحد من السلف: هي السنة، وقال أيضاً طائفةٌ كمالك وغيره: هي معرفة الدين والعمل به، وقيل غيرُ ذلك، وكل ذلك حق؛ فهي تتضمن التمييز بين المأمور والمحظور، والحق والباطل، وتعليم الحق دون الباطل، وهذه السنة التي فرَّق بها بين الحق والباطل، وبين الأعمال الحسنة والقبيحة والخير والشر، وقد جاء عنه ﷺ أنه قال: "تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك"[٢]"[٣].

وقال - رحمه الله -: "وقد قال غير واحد من العلماء منهم يحيى بن أبي كثير[٤] وقتادة والشافعي وغيرهم: (الحكمة) هي السنة لأن الله أمر أزواج نبيه

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٤.

(٢) أخرجه أحمد ١٢٦/٤، وابن ماجه ١٤/١ ح٤٣، المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين، عن العرباض بن سارية، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٦٤٧/٢.

(٣) مجموع الفتاوى ١٧٥/١٩.

(٤) هو الإمام الحافظ أبو نصر يحيى بن صالح الطائي مولاهم اليمامي، أخرج له الستة، توفي سنة ١٣٢هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٧/٦، وتقريب التهذيب ص٥٩٦.

أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة، والكتاب: القرآن، وما سوى ذلك مما كان للرسول يتلوه هو السنة"[١].

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بـ(الحكمة) في الآية على أقوال:

القول الأول: ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالحكمة في الآية هي السُنَّة، سنة النبي ﷺ، وقد روي ذلك عن قتادة[٢]، والحسن[٣]، واختاره الإمام الشافعي، وابن جرير[٤]، والسمرقندي[٥]، والزمخشري[٦]، وابن كثير[٧]، والألوسي[٨]، وابن عاشور[٩].

قال الإمام الشافعي بعد أن ذكر هذه الآية وما في معناها من الآيات: "فذكر الله الكتاب وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله، قال: وهذا يشبه ما قال – والله أعلم – لأن القرآن ذكر، وأتبعه الحكمة، فلم يجز – والله أعلم – أن يقال

---

(١) مجموع الفتاوى ٦/١، وانظر: المصدر السابق ٣٦٦/٣، ١٦٢/٥، ٨٢/١٩.
(٢) تفسير ابن جرير ٢٩٩/١٠، وابن أبي حاتم ٣١٣٣/٩.
(٣) ذكره عنهما الثعلبي ٤٥/٨، وذكره عن مقاتل الواحدي في الوسيط ٤٧٠/٣، والبغوي ٥٢٩/٣.
(٤) تفسيره ٢٩٩/١٠.
(٥) تفسيره ٥٠/٣.
(٦) تفسيره ٢٣٦/٣.
(٧) تفسيره ٤٩٥/٣.
(٨) تفسيره ٢٠/٢٢.
(٩) تفسيره ١٨/٢٢.

الحكمة هاهنا إلا سنة رسول الله، وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله، وأن الله افترض طاعة رسوله، وحتم على الناس اتباع أمره؛ فلا يجوز أن يقال لقول: فرض، إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله"[١].

القول الثاني: أن المراد بالحكمة في الآية: أحكام القرآن ومواعظه، أو أمر الله ونهيه في القرآن. وعلى هذا القول تكون الحكمة صفةً لآيات الله المذكورة في الآية أو من باب عطف الخاص على العام؛ وهذا مروي عن قتادة والحسن[٢].

قال الزمخشري: "ثم ذكرهن – يعني أزواج النبي ﷺ – أن بيوتهن مهابط الوحي وأمرهن ألا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين: هو آيات بينات تدل على صدق النبوة لأنه معجز، وهو حكمة وعلوم وشرائع"[٣].

وقال الألوسي: "وقال جمع: المراد بالآيات والحكمة: القرآن وهو أوفق بقوله: ﴿ يُتْلَىٰ ﴾ أي: اذكرن ما يتلى من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله تعالى البينة الدالة على صدق النبوة بأوجه شتى وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع"[٤].

والراجح – والله تعالى أعلم – القول الأول، وأن المراد بالحكمة في الآية هي السنة لأمرين:

---

(١) الرسالة للإمام الشافعي ص٧٨، وانظر كتاب الأم له ٢٧٠/٧.

(٢) أخرجه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ١٧/١، باب قوله ﷺ: "لا حسد إلا في اثنتين".

(٣)الكشاف ٢٣٦/٣.

(٤) تفسير الألوسي ٢٠/٢٢.

الأول: ما أشار إليه الإمام الشافعي من أن الله تعالى أخبر أن ما يتلى في بيوتهن شيئان هما: آياته وهي القرآن، والحكمة ولا يمكن أن يراد بها هنا إلا السنة.

الثاني: أن استعمال القرآن يدل عليه حيث ذكر الله – تعالى – الحكمة مقترنةً بالكتاب في ستة مواضع[١] من القرآن الكريم كلها بمعنى السنة[٢].

وأما ما ورد عن الإمام مالك من أن معنى الحكمة في الآية معرفة الدين والفقه فيه والعمل به[٣]، فقد وجهه شيخ الإسلام كما تقدم بأن ذلك هو ما تضمنته السنة.

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا... ﴾ الآية، سورة البقرة: الآية ١٢٩.
وقوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ... ﴾ الآية، سورة البقرة: الآية ١٥١.
وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ... ﴾ الآية،سورة البقرة: الآية ٢٣١.
وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ... ﴾ الآية،سورة آل عمران: الآية ١٦٤.
وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ الآية،سورة النساء: الآية ١١٣.
وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا ﴾ الآية، سورة الجمعة: الآية ٢.
(٢) انظر: السنة حجيتها ومكانتها في الإسلام للدكتور محمد لقمان السلفي ص٥.
(٣) انظر: تفسير ابن جرير ٦٠٧/١، وجامع بيان العلم وفضله ١٧/١.